فقه السنن الربانية
ومدي إفادة المسلمين منها
قراءة في فكر الإمام محمد عبده

تاليف

د. رمضان خميس زكي عبد التواب

عضو هيئة التدريس في جامعة الأزهر

وأستاذ الدراسات القرآنية المساعد كلية المعلمين – حائل

المملكة العربية السعودية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأصلي وأسلم علي رسول الله محمد ﷺ وآله ومن والاه وبعد فهذه أوراق كتبتها عن قضية وإمام ، أما القضية فهي (السنن الربانية فقهها ومدي إفادة المسلمين منها)، تلك القضية التي لم تأخذ حقها من كتابات المفسرين ، قدامي ومحدثين، إلا إلماحات سريعة وإشارات خافتة وسط حشد هائل من قواعد فنية ومسائل كلامية لعلها صلحت لعصور مضت ، وكان ينبغي أن تذهب مع من ذهبوا ممن كتبت عنهم من فرق وطوائف كانت في عصور غير عصورنا وبيئات غير بيئاتنا ولم يلتفت إلى قضية السنن ، الماضية والقوانين الحاكمة والنواميس التي تحكم سلوك الناس إلافئة قليلة تكاد تعد علي أصابع اليدين، وكان من أبرزهم حجة الإسلام الإمام الغزالي ، وجمال الدين الأفغاني ،والأستاذ الإمام محمد عبده ، ومدرسته الإصلاحية التي نسجت علي منواله وسارت علي دربه ورغم خطورة هذه القضية، ومسيس حاجة المسلمين إليها إلا أنها لم تأخذ من فكر المسلمين إلا النذر اليسير الذي لا يتناسب مع قيمتها وخطرها .

وأما الإمام فهو حكيم الإسلام الأستاذ الإمام محمد عبده الذي لم يأخذ حقه أيضا في حياته ولا بعد مماته بالقدر الذي يتناسب مع ما قدمه لهذه الأمة من إصلاح وتنوير وثورة علي الجمود والتقليد والبعد عن هدايات القرآن التي تتجدد ولا تتبدد ؛ ففي حياته ابتلي بالتنكر لفكره الذي كان ثورة علي الجمود والسكون والتقليد ، وبعد وفاته لم يأخذ حقه بالقدر الذي يليق به.

وهذه الفكرة تتأكد لدي أي دارس لتراث الأستاذ الإمام فإنه سيجد نفسه أمام مصلح من طراز فريد جمع بين ثقافة التراث هضماً ووعياً وثقافة العصر انتخاباً وأخذاً ، فكان تلا حقاً ثريا يثمر ويورق ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه .

وهذه الأوراق لمحة من لمحات الوفاء أكتبها عن هذا الإمام، وقضية من قضايا التجديد في الدراسات القرآنية لديه .

وصاحب الفضل في هذا التوجيه مكتبة الإسكندرية والقائمون عليها ،إذ وصلتني منهم دعوة كريمة للكتابة عن هذا الإمام في زاوية من زوايا فكره التفسيري، فلهم كل الفضل والعرفان، ولقد سارعت بتلبية الدعوة التي اعتبرتها أمرا صادف رغبة وأتي في وقته فكان كالغيث صادف أرضا جرزا فاهتزت وربت ،فأحياها الذي يحي الموتي إن ربي علي كل شيء قدير ، وقد سمين هذه الدراسة (السنن الربانية فقهها ومدي إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده) .

هذا وقد قسمتها بعد المقدمة إلى ثمانية مباحث وخاتمة :

المبحث الأول : الأستاذ الإمام وعلم السنن عنايةً وتعريفاً.

المبحث الثاني : أهمية دراسة علم السنن والآثار المترتبة علي إهمالها في نظر الأستاذ الأمام .

المبحث الثالث : موقف المسلمين من السنن بين الإعمال والإهمال في فكر الأستاذ الإمام .

المبحث الرابع : عناية النبي (ﷺ) والصحابة بعلم السنن في نظر الأستاذ الإمام .

المبحث الخامس : خصائص السنن الربانية في فكر الأستاذ الإمام .

المبحث السادس : العلاقة بين السنن الربانية والمشيئة الإلهية في نظر الأستاذ الإمام .

المبحث السابع : العلاقة بين السنن الربانية وحرية الإرادة .

المبحث الثامن : العلاقة بين السنن الربانية والسنن الكونية

المبحث التاسع : العلاقة بين السنن الربانية والأسباب

المبحث العاشر : موارد السنن الربانية في نظر الأستاذ الإمام .

المبحث الحادي عشر : الإنسان بين إدراكه للسنن وتوظيفه لها في فكر الأستاذ الإمام .

ثم كانت الخاتمة التي أسأل الله حسنها ثم فهرس لأهم المصادر والمراجع وفهرس للموضوعات.

وأسأل الله تعالي أن يجزي القائمين علي مكتبة الإسكندرية خير الجزاء وأن ينفعنا بتراث أسلافنا إنه نعم المولي ونعم النصير .

كتبه أفقر الخلق إلى عفو مولاه

رمضان خميس الغريب

١٢ / من شهر رمضان المعظم ١٤٢٦ هـ

٢٠٠٥/١٠/١٥ م

حائل – المملكة العربية السعودية

المبحث الأول

الأستاذ الإمام وعلم السنن عناية وتعريفا

الناظر في حياة الإمام محمد عبده ووجهته الإصلاحية يجد أن حديثه عن السنن وتوظيفها وإحسان التعامل معها ليس غريبا فهو بتركيبته العقلية المصلحة مؤهل لهذا الإدراك ، هذه التركيبة التي جعلته في بداية حياته يثور علي نظام التعليم القائم، هذا التعليم العقيم الذي يخرج منه الدارس دون أن يفيد شيئا ،وتتوالى الأجيال علي دراسة جامدة لا يجرؤ واحد منهم علي انتقاد نظام التعليم القائم ولا يجرؤ علي الدعوة إلى إصلاحه حتى اصطدم الأستاذ الإمام بهذا النظام التعليمي فما اتهم نفسه وقدرته، وإنما صاح صيحة النذير العريان بأن هذه الطريقة في التعليم طريقة جامدة غير منتجة ،وما ذلك إلا لتوازن الأمور في عقله وصحة الإدراك في ناظريه ، والناظر في مواقفه في الإصلاح يجد هذه الشواهد المتكاثرة التي تفرز في النهاية هذا العطاء في جانب من أعظم جوانب هدايات القران ،وهو جانب الإصلاح والتغيير وجانب السنن الربانية التي تعد لهذا الإصلاح والتغيير .

لقد أسهم الأستاذ الإمام في وضع منظومة علمية وإصلاحية متكاملة " فساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود وشارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر وبعث الوطنية وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية[1] "

ومن أبز الشواهد علي اهتمامه بعلم السنن وجعله ضمن منظومته الفكرية والإصلاحية ما يلي :

(1) مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤٢٦هـ ج ٨ السنة ٧٨ صـ ١٣٤٦ من مقال أستاذنا د/ على جمعة حفظه الله

١. <u>منهجه في العروة الوثقي وعلاقته بالحديث عن السنن</u> :

لقد انتحى الأستاذ الإمام مع السيد جمال الدين الأفغاني في كتابة مقالات العروة الوثقى منحي يؤكد وجهتهما في الإصلاح ،ووقوفهما على كثير من سنن الله تعالي في كونه ونواميسه في عباده فقد أيقظت العروة الوثقى كما وصف السيد رشيد رضا هذه المقلات بأنها كالماس الكهربائي الذي تضاء به عقول قارئيها إنها تؤثر في نفسه وشخصه حتى تخرج من طور إلي طور ، ويصف السيد رشيد رضا العروة الوثقي [1] ومقالاتها وكيف نقلته من حال الانعزال والانطواء إلى حركة هادرة وعمل موار بقوله (كنت من قبل اشتغالي بطلب العلم في طرابلس الشام مشتغلا العيادة ميالا إلى التصوف، وكنت أنوي بقراءة القرآن الاتعاظ بموعظة لأجل الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، ولما رأيت نفسي أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلم – علي قلته صرت أجلس الى العوام محمد بلدنا أعظهم القرآن مغلبا الترهيب علي الترغيب، والخوف علي الرجاء ،والإنذار علي التبشير ،والزهد في الدنيا علي القصد واعتدال فيها ، حتى ظفرت بنسخ من جريدة العروة الوثقي في أوراق والدي فأثرت في قلبي تأثيرا شديدا ودخلت بها في طور جديد من حياتي وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات في الاستشهاد والاستدلال علي قضايا بآيات الكتاب ،وماتضمنه من تفسيرها مما لم يحم حوله أحد من المفسرين علي اختلاف أساليبهم في الكتابة ومدارهم في الفهم [2]

ويوضح السيد رشيد رضا أن منهج العروة الوثقي انفرد بأشياء لم يحم حولها أحد من المفسرين السابقين ولخص ذلك في ثلاثة أمور هي :

١- بيان سنن الله تعالي في الخلق ونظام البشري وأسباب ترقي الأمم وتدليها وقوتها وضعفها .

---

(١) العروة الوثقي أنشأها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس ١٣١٠هـ عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر .
(٢) تفسير المنار ١١/١

٢- بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان ،وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ومقتضي ذلك أنه دين روحاني و اجتماعي ومدني وعسكري ،وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة علي الشريعة العادلة والهداية العامة وعزة الملة لا لأجل الإكراه علي الدين بالقوة

٣- بيان أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم ،فهم أخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة " [١]

ويؤكد هذا المعني في موطن آخر فيقول " إن مسلك جريدة العروة الوثقي في الدعوة إلى الإصلاح الإسلامي من طريق إرشاد القرآن وبيان سنن الله تعالي في الإنسان والأكوان قد فتح لي في فهم القرآن بابا لم يأخذ بحلقته أحد من المفسرين المتقدمين، فهناك فرق بين فهم الأستاذ وأستاذه الحكيم للقرآن وبين أفهام المتقدمين الذين كانت حظوظهم من تفسير الآية كتابة سطرين أو بضعة أسطر أكثرها في غير سبيل هدايتها " [٢] ويسوق السيد رشيد رضا تفسير الأستاذ الإمام لقوله تعالي " إن الله لا يغير ها بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " [٣] مؤكدا بها ما يذهب إليه من جودة فهم الأستاذ الإمام واعتنائه بعلم السنن ذاكراً أن هذا التفسير نشر في جريدة العروة الوثقي العدد السابع عشر ذي الحج ١٣٠١ بعنوان سنن الله في الأمم وتطبيقها علي المسلمين .

وشاهد القول : أن الأستاذ الإمام منذ بدايات علي دعوته في الإصلاح يضع سنن الله تعالي في ذهنه فإن الإصلاح والتغيير بني علي نواميس ثابتة وسنن ماضية لا تتخلف ولا تتأجل وهذه النظرة السننية إلى الحياة وضوابطها في النظرة الحية التي تنقل سامعها وقارئها من طور إلى طور، كما صنعت في السيد رشيد رضا فجعلته

---

(١) المنار ١١/١
(٢) انظر تفسير المنارج ١٠ ص ٣٦ ، وليس مراده الغض من المفسرين بل المراد أنهم لم يسهبوا في شرح هذا السنن مثله
(٣) الرعد آيه ١١

ينظر إلى القرآن وهداياته نظرة جديدة بدل أن يكون القرآن كتاب وعظ وترهيب فحسب أصبح في نظره كتاب هداية ،ومنهج إصلاح ،وبناء حياة دينية ومدنية وعسكرية واجتماعية .

٢- تفسير المنار وتناوله للسنن :

من المعلوم أن تفسير المنار الذي دونه السيد رشيد رضا يقوم في لحمته وسداه علي فكر الأستاذ الإمام وهو ما جري عليه في تفسيره الذي كان يلقيه دروسا في الأزهر ويدونها السيد رشيد ويعرضها في جملتها وتفصيلها علي الأستاذ الإمام يقول السيد رشيد مبينا صلة تفسير المنار بالأستاذ الإمام ودورة في هذا التفسير " كنت أكتب أثناء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قله واحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه وأمده بكل ما أتذكره في وقت الفراغ ،وكنت أولا أطلع الأستاذ الإمام علي كل ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، وكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات ،ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع ،بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به علي أنه لم يكن كله عنه معزوا إليه بل كان تفسيرا للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفادة منها ولما كان رحمه الله يقرأ كل ما أكتبه إما قبل طبعه وهو الغالب وإما بعده وهو الأقل لم أكن أري حرجا فيما أعزوه إليه مما فهمته وإن لم أكن كتبته في الدرس لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو " [1] وإذا ثبت لنا هذا وتأكد لدينا فإن خلاصة تفسير المنار هي فكر الأستاذ الإمام ، والناظر لأول وهلة لفهارس المنار يجد إلى أي مدي اعتني الأستاذ الإمام وتلميذه بعلم السنن فما نجد جزءا إلا وفيه قضية من قضايا السنن شرحا لها أر شاداً إلى كيفية التعامل معها ،أو إلماحا إلى إحسان توظيفها بل لا أكون مبالغا إذا قلت إنه لا تمر صفحة من صفحات المنار إلا وفيها حديث عن السنن طويل أو قصير ، عن دل هذا علي شيء فإنما يدل علي عناية الأستاذ الإمام بعلم السنن

(١) المنارج ١ ص ١٥ ،١٤ ، وانظر ج٢ ص ٣٩٥

ولفت أنظار المسلمين إليه، وسنري في أواخر هذه الدراسة السنن التي استخرجها الأستاذ الإمام عند تناوله لتفسير آيات القرآن الكريم .

وصف تفسير المنار وعلاقته بعلم السنن :

ومما يدل علي اهتمام الأستاذ الإمام بعلم السنن وصف تفسيره بهذا الوصف الذي يدل علي عمق تناوله لعلم السنن وأنه جانب هام من جوانب عنايته إذ يصفه السيد رشيد بقوله : " هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول الذي يبين حكم التشريع وسنن الله في الإنسان وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكانه ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها وهذه هي الطريقة التي جري عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده " [1] والذي ينظر في هذا الوصف لتناول الأستاذ الإمام للتفسير يجد اهتمامه بعلم السنن وتطبيقها علي المسلمين كان جانبا كبيرا من جوانب تفسيره أخذ قدرا من دعوته الإصلاحية المرتكزة علي القرآن وهداياته .

٤- الاعتبار بالسنن أصل من أصول الإسلام في نظر الأستاذ الإمام .

لقد عد الأستاذ الإمام الاعتبار بالسنن أصلا من أصول الإسلام وهو يقارن بين الديانتين المسيحية والإسلام عندما كتب رده الشهير علي الكاتب المسيحي " صاحب مجلة الجامعة الذي اتهم الإسلام بمعاداته للعلم والمدنية فذكر الإمام أن " من أصول الإسلام التي وضعها لتقويم ملكات نفس القائمة علي طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها أصل العبرة فيمن مضي ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم [2] " وذكر أن هذا الأصل يناقض ما قامت عليه النصرانية من الخوارق المنافية لقيام الكون

(١) صفحة الغلاف من كل أجزاء المنار
(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٤ ، وانظر ص ـ ٢٣ ، ٢٢ ط نشر مكتبة صبيح بدون تاريخ

علي قوانين ثابتة وأسس راسخة ،وفي ذلك ما فيه من تعطيل الفكر وتجميد العقل وحجبه عن ربط الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها .

إلى هذا الحد يصل اعتناء الشيخ بعلم السنن واهتمامه بها

تعريف السنن لدي الأستاذ الإمام

وقد عرف الأستاذ الإمام السنن ضمن اهتمامه بالحديث عنها فقال : " السنن جمع سنه وهي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع ، قيل إنها من سن الماء إذا والي صبه فشبهت العرب الطريقة المتبعة بالماء المصبوب فإنه لتوالي أجزائه علي نهج واحد يكون كالشيء الواحد.

وقد جاء ذكر السنن في مواضع من الكتاب العزيز كقوله في سياق أحكام القتال وما كان في وقعة بدر " ﴿ قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ ﴾ [(١)] وقوله في سياق أحوال الأمم مع أنبيائهم " وقد خلت سنة الأولين " [(٢)] وقوله في سياق دعوة الإسلام " سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا " [(٣)] وقوله في مثل هذا السياق " فهل ينظرون إلا سنه الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " [(٤)] وصرح في سور أخري كما صرح هنا بأن سننه لا تتبدل ولا تتحول كسورة بني إسرائيل، وسورة الأحزاب، وسورة الفتح [(٥)] .

ويعقب – رحمه الله – علي هذا الاهتمام القرآني بالسنن وورودها فيقول : هذا إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان " [(٦)]

---

(١) الأنفال ٣٨ .
(٢) الحجر ١٣ .
(٣) الإسراء ٧٧ .
(٤) فاطر ٤٥ .
(٥) تفسير المنارج ٤ ص ،١١٥/ ١١٦، ٨ / ٣٠.
(٦) السابق ج ٤ ص ١١٦

وعرف الأستاذ السنن في موضع آخر بقوله " السنن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلي حسبها تكون الآثار وهي التي تسمي شرائع أو نواميس ويعبر عنها بالقوانين [1] وقد تناول الأستاذ الإمام كجانب تطبيقي لهذا الاهتمام عدداً من السنن نبه عليها وتناول الحديث عنها .

جوانب تطبيقية من علم السنن عند الأستاذ الإمام .

١- سنة الله في إيتاء الملك ونزعه ٢٢٢/٣
٢- سنة الله فيمن اتبع هواه واخلد إلى شهواته ٣٤١/٩
٣- سنة الله فيما يغفره وما لا يغفره ١٢٢/٥
٤- سنة الله في الانتخاب الطبيعي ٦/٨
٥- سنة الله في جعل العاقبة للمتقين ٢٠٠/١٢
٦- سنة الله في عاقبة الجهل ٣٧٧/٩
٧- سنة الله في وارثي الأمم وحالهم اليوم ٤٨٣/٩
٨- سنة الله في إهلاك الأمم ٢٠٤/١٢
٩- سنة الله في مكر أكابر المجرمين ٢٩/٨
١٠- سنة الله في النصر ٣٩٣/٢
١١- سنة الله في التدافع ٣٩٤/٢
١٢- سنة الله في تمييز الخبيث من الطيب ٢٠٨/٤
١٣- سنة الله في اختلاف الأمم ٢٠٥/١٢
١٤- سنة الله في تنازع رجال المال ودعاة الإصلاح ٢٠/١٢
١٥- سنة الله في ضلال الفاسقين ١٩٩/١
١٦- سنة الله في إصلاح النفوس ٥٦/٣
١٧- سنة الله في عاقبة الظلم ١٧/٣

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ط مكتبة صبيح ص ٥٤

١٨- سنة الله في الهداية ٢٩٩/٣

١٩- سنى الله فيمن لا تقبل توبتهم ٣٦٧/٤

٢٠- سنة الله في الإملاء للكافرين ٤ /٢٣٧

٢١- سنة الله في التداول الحضاري ١٢١/٤

٢٢- سنة الله في الأسباب والمسببات ١٧٩/٥

٢٣- سنة الله في الجزاء ١٧٩/٥

٢٤- سنة الله في عقاب معاندي الرسل ٢٥٧/٧

٢٥- سنة الله في المقلدين ٢٩٠/٧

٢٦- سنة الله في السعادة والشقاوة ٢٢٣/٨

٢٧- سنة الله في أكابر المجرمين مع المصلحين ٤/٨

٢٨- سنة الله في السابقين إلى الإصلاح ٤٤٩/٨

٢٩- سنة الله في سوء عاقبة الماكرين ٣٠/٨

٣٠- سنة الله في ولاية الظالمين بعضهم لبعض ٧٨/٨

٣١- سنة الله في عداوة شياطين الإنس والجن للرسل ٥/٨

٣٢- سنن الله وحكمه في قصص الأنبياء١٤/٩

٣٣- سنة الله في أول من اتبع الأنبياء ٤١٠/١٠

٣٤- سنن الله في الطبائع والغرائز ١٩٧/١٢

وهذه الرؤوس الموضوعية غيض من فيض، وقل من كثر مما كتبه الأستاذ الإمام وسجله السيد رشيد رضا حول موضوع السنن ،وقد حرصت علي جمع هذا الثبت بهذه الموضوعات لأنها هي التي تصلح لأن تكون فِكَراً مستقلةً وأما حديثه عن السنن ومفهومها فأكثر من أن تحويه هذه الصفحات المعدودة وتلك الكلمات المحدودة وأري في ذلك فرصة لأهيب بالباحثين والدارسين في مجال الدراسات القرآنية لأن يمعنوا النظر في تراث الأستاذ الإمام .

المبحث الثاني

أهمية دراسة السنن الربانية والآثار المترتبة علي إهمالها

النظر في سنن الله تعالي في خلقه وقوانينه في عباده وتوظيفها وإحسان التعامل معها ضرورة وفريضة ، فهي ضرورة للواقع المعيش الذي يحياه المسلمون، فقد أصبح البون بينهم وبين عدوهم في الإدراك والتوظيف وإحسان التعامل شاسعاً والفرق واسعاً حتى صارت خير أمة أخرجت للناس تصنف علي أنها دول نامية، أو عالم ثالث أو بتعبير أكثر صراحة " الدول المتخلفة " وليست هذه الأوصاف لفقدان الموارد والطاقة أو لقلة المهارات والإمكانات ولكن لهذا الغياب عن عالم الشهادة بما يموج به من صراعات فكرية وثقافية تعتمد علي أصول وترتكز علي أسس وتنطلق من قواعد ثابتة.

كما أن دراسة السنن وتدوينها وتوظيفها فريضة دينية لهذه الأوامر الصادقة التي تهيب بالمسلمين أن يسيروا في الأرض ويمشوا في مناكبها ويعتبروا بأحوال الماضين . إن المسلمين ما قصروا في شيء تقصيرهم في هذا العلم الذي كان النبي ﷺ والصحابة الكرام من السابقين إلى إدراكه والتعامل معه .

يقول صاحب الإحياء وهو يقسم العلم إلى أقسام محمودة ومذمومة : (وأعلي أقسام العلم المحمود: العلم بالله وبصفاته وأفعاله وسننه في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة علي الدنيا فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى مادة الآخرة [(١)]" ويؤكد –رحمه الله – علي أن كل جهد يبذل في سبيل هذا العلم قليل جداً بالنسبة إلى قيمته وثمنه وفائدته بقوله (وبذل المقدور فيه إلى أقصي غايات الجهد قصور عن حد الواجب فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون علي سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم ، ويؤكد علي أن خوضه والانتفاع به يحتاج إلى عزمات الرجال وعقول المفكرين وجهاد الصابرين بقوله " وما خاض أطرافه إلا الأنبياء الأولياء والراسخون في العلم علي اختلاف درجاتهم ، بحسب اختلاف قوتهم وتعاون تقدير

---

(١) إحياء علوم الدين ، جـ١ ، ص ٤٥ ، ط١ عيسي طه البابي الحلبي بدون تاريخ .

الله تعالي في حقهم وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر ، ويرشد إلى الوصول ووسائل الإدراك لهذا العلم بقوله ويعين علي التنبيه له ؛ التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة ، هذا في أول المر ، ويعين عليه في الآخرة ... أي في آخر الأمر المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه من علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ليتضح منه لكل سائح وتفريغه من علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ليتضح منه لكل سائح إلى طلبه بقدر الجهد ولكن لا غني فيه عن الاجتهاد فالمجاهدة والرياضية مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواه" (١) هذه الكلمات من حجة الإسلام تحتاج إلى مدارسة ومذاكرة حتى يعي المسلمون مطالبها وغاياتها ويدركوا قيمة هذا العلم الذي عدة الإمام الغزالي رحمه الله – من أعلي أقسام العلم المحمود .

١- وجوب تدوين علم السنن :

ونري الإمام محمد عبده – رحمه الله – يؤكد علي هذه النظرة الداعية إلى دراسة علم السنن وتدوينه وتأصيل علم الاجتماع علي قواعد إسلامية قرآنية متينة فيقول : " إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن جعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة لنستديم ما فيها الهداية والموعظة علي أجمل وجه فيجب علي الأمة في مجموعها أن يكون لهم قوم يبينون لهم سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليهما بالقرآن بالإجمال وقد بينها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه ، والعلم بسنن الله تعالي من أهم العلوم وأنفعها والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة وقد دلنا علي مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لإجتلائها ومعرفة حقيقتها " (٢) .

ويرد اعتراضا قد يرد مفاده أن الصحابة لم يدونوا هذا العلم، فيذكر أنهم لم يدونوه كما لم يدونوا باقي العلوم، ولكنهم كانوا يدركونه ويحسنون توظيفه في النصر

(١) إحياء علوم الدين ، جـ١ ، ص ٤٥ ، ط١ عيسي طه البابي الحلبي بدون تاريخ .
(٢) المنار جـ ٤ ، ١١٤ ـ ١١٥ .

والحرب والتجارب ،وإن لم يسموه فليسمه الناس علم السنن أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية فلا حرج في التسمية .

وعندما يتحدث – رحمه الله عن أقسام التفسير يذكر أن لها مراتب أعلاها لا تتم إلا بأمور ،ومن أبرز هذه الأمور وتلك الوسائل (العلم بأحوال البشر) " فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها ،فلابد النظر في الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشيء اختلافهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر، ويذكر أن القرآن نفسه دعا إلى هذا العلم والانتفاع به بقوله " لقد أجمل القرآن الكلام عن الأمم ، والسنن الإلهية ،وعن آياته في السماوات والأرض وفي الأفاق والأنفس، وهو أجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً " [١] ويؤكد – رحمه الله – علي أن العلم بالسنن أعظم العلوم أعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالي وصفاته ومن أقرب الطرق إليه واقوي الآيات الدالة عليه وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء وإنما يرجي الاستفادة منه إذ نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعاً وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في نظرته وهداية كتابه ... وإن في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة علي بصيرته في هذا العلم " [٢]

٢- الآثار المترتبة علي إهمال علم السنن :

إن السير في الدنيا دون الوقوف علي شيء من علم السنن ضرب في متاهة ومشي في غياهب الظلم بلا دليل يقود ولا هاد يرشد ولا صاحب يدل لأنه فقد لاستصحاب جزء من المعرفة التي يترتب عليها الإعداد لكل نازلة أو الإفادة من كل منحة من هنا نري الأستاذ الإمام يركز علي إبراز الآثار المترتبة علي إهمال السنن فيقول : إن للأمم أجالاً لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التي اقتضتها السنن الإلهية

---

(١) المنار جـ ١ ، ٢٠ -٢١ .
(٢) المنار جـ٧ ، ص ٤١٧ بتصرف كبير .

العامة وإذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة وعلي غفلة ليلاً أو نهاراً ،ولله عز وجل سنة في أخذ الأمم بذنوبها ومن لا يعتبر ولا يتربي يصر علي ذنبه ولا يرجع عنه " (١)

من هنا ندرك أهمية دراسة وتدوين علم السنن ولفت أنظار المسلمين إليها حتى تعود لهم الريادة والقيادة ويهتف الناس من جديد (ها قد عاد المسلمون) .

(١) انظر المنار جـ ٩ ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ بتصرف كبير .

المبحث الثالث

موقف المسلمين من علم السنن بين الإعمال والإهمال

يرى الأستاذ الإمام أن علم السنن لم يأخذ حقه من تفكير المسلمين في القديم والحديث إلا النذر اليسير الذي لا يتناسب مع قيمة هذا العلم فإن المفسرين متقدمين ومتأخرين (لم يقصروا فى شئ من علم الكتاب والسنة كما قصروا فى بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى فى الأمم والجمع بين النصوص فى ذلك والحث على الاعتبار بها ، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ دينها ودنياها ،وهو مالا يغنى عنه التوسع فى دقائق مسائل النجاسة والطهارة والسلم والإجارة ، فإن العلم بسنن الله تعالى لا يعدله إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله بل هو منه أو طريقه الوصل إليه) [1] ويرى أن المسلمين بصفة عامة لم يكونوا على مستوى الأمر الإلهي (اقرأ) الذى ربط بين قراءة المنظور، وقرءاة المسطور، فجعل القراءة باسم الله الذى خلق الإنسان من علق والذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ،فلم يفد المسلمون لا من قراءة المسطور ولا من قراءة المنظور(وأمسوا من أجهل الناس بسنن الله تعالى وأبعدهم عن معرفة أحوال الخلق) [2] ويرى أن غيرهم أصبح أكثر منهم سيرا فى الأرض وأشد منهم استنباطا لسنن الاجتماع وأعرق منهم فى الاعتبار بما أصاب الأولين والاتعاظ بجهل المعاصرين [3] ويرى الأستاذ الإمام أن اعتماد المسلمين على مجرد أنهم مسلمون دون وعى بمتطلبات هذا الإسلام ومن أولياته العلم

---

(١) انظر المنار ج٧ ص٤١٦.
(٢) المنار ج٤ ص١٨.
(٣) السابق ١٨/٤ و١٩،٣
٣

بالسنن لا يكفي ،فقد يكون قوم آخرون كافرين بالدين أصلا بعيدين عن هدي السماء لكنهم يعرفون هذه السنن ،يكونون أفضل حالا وأسعد حظا من هؤلاء المسلمين فيقول (ربما نرى قوما يدعون الإيمان بالله ورسله كلهم أو بعضهم يعتمدون في قضاء حاجتهم من شفاء مرضى، وسعة رزق، ونصر على عدو، وغير ذلك على التوسل ببعض الأولياء وذبح النذور لهم ودعائهم والطواف بقبورهم والتمسح ،بهم ونجد آخرين ليس لهم مثل اعتقادهم وعملهم هذا ،وهم أحسن منهم صحة وأوسع رزقا وأعز ملكا، وإذا قاتلوهم ينتصرون عليهم ويسودونهم، وسبب ذلك: أنهم يعرفون سنن الله في الأسباب والمسببات ، وأن الرغائب إنما تنال بالأعمال مع مراعاة تلك السنن سواء كانوا يعلمون مع ذلك أن الله تعالى – رب الخلق وهو الخالق والواضع لنظام خلقه بتلك السنن وأنه لا تبديل لسنته كما أنه لا تبديل لخلقه أم لم يكونوا يعلمون ذلك) [١] فالأمر إذا ليس أمر كفر وإيمان، وإنما هو أمر إدراك لهذه السنن الثابتة والقوانين الماضية التي لا تحابي ولا تجامل بل تجرى على الجميع بشمول واطراد ، وعندما يتناول قوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [٢] يذكر أن هذه الآية وما يشبهها من أهم قواعد علم الاجتماع البشرى وهو علم بسنن الله تعالى في قوة الأمم وضعفها وعزها وذلها وغناها وفقرها وبداوتها وحضارتها وأعمالها، ويؤكد على أن موقف المسلمين منه كان موقفا باهتا ضعيفا لا يرقى إلى قيمة هذا العلم في الوقت الذى أفاد منه غيرهم فيقول: (لقد استفاد غير المسلمين بما كتبه ابن خالدون في هذا العلم وبنوا عليه ووسعوه فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين من هداية القرآن العليا في إقامة أمر ملكهم وحضارتهم على ما أرشد إليه من القواعد وسنن الله فيمن قبلهم ، ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية مع شدة حاجتهم إليها بسبب ما وصل إليه تنازع البقاء في هذا العصر [٣]

(١) المنار٨/١٢٢
(٢) الأنعام ٣١
(٣) المنار٨/٩٧ بتصرف

عندما يتحدث عن سنة من سنن الله تعالى كجعل العاقبة للمتقين، ينعى على علماء المسلمين الذين لم يفقهوا الآيات الدالة على تلك السنن ولم يقفوا عندها حتى تفيد الأمة المسلمة من توجيهات القرآن الكريم إذ يقول : " إن قوله تعالى﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [(١)] هو الأساس الأعظم لسنن الاجتماع في فوز الجماعات الدينية والسياسية والشعوب والأمم في مقاصدها وتغلبها على خصومها ومناوئيها كما أنه الأساس الراسخ لفوز الأفراد في أعمالهم الدينية والدنيوية من مالية واجتماعية، ولئن سألت أكثر علماء الدين ممن لا بضاعة في علم القرآن عن معنى كون العاقبة للمتقين ليقولن أوسعهم إطلاعا : إن التقوى فعل الطاعات وترك المعاصي ويقصر فيما يجب من البيان التفصيلي لها في تقوى الأفراد والجماعات وتقوى الأمة ولم يشر أحد منهم إلى معناها العام ،وهو اتقاء ما يفسد العقائد والأخلاق والروابط الخاصة والعامة وتحرى ما يصلحها بهدى الكتاب والسنة وما أرشد إليه من سنن الله – تعالى – في حياة الأمم وموتها وضعفها وقوتها وبقاء دولها وزوالها وكون هذه السنن مطردة في جميع الشؤون العامة من منزلية ومدنية ومالية وحربية وسياسية لا تبديل لها ولا تحويل ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنحل وبهذا كله تكون العاقبة المرجوة لهم في السيادة والسعادة) [(٢)]

وإذا كان موقف المسلمين من السنن الربانية لا يليق بقيمة السنن وخطورتها فإن ذلك راجع إلى عدد من الأسباب في نظر الأستاذ الإمام نوجزها فيما يلي :

<u>أسباب جهل المسلمين بعلم السنن في نظر الأستاذ الإمام :</u>

يرى الأستاذ الإمام أن هناك أسبابا جعلت إدراك المسلمين لعلم السنن إداركا ضعيفا وتوظيفهم له أشد ضعفا وأبعد عن طريق الحق رشداً ومن هذه الأسباب:

---

(١) هود٤٩
(٢) انظر تفسير المنار ص ١٢ ١ ٢٠١ بتصرف يسير

١- الفهم المغلوط لمضامين الدين ومعايير الحياة :

فإن كثيراً من الناس لا يفهم أن لله في خلقه سنناً ثابتة وقوانين مستمرة استمرار الشمس في مدارها منتظمة انتظامها في ممرها لا تتخلف ولا تتأجل وهؤلاء عندما يرى بعضهم ضعف أمته مثلا يعتذر عنه

(بالقدر الذى يفهمه مقلوبا بمعنى الجبر أو يسليها بأن هذا من علامات الساعة، وارتكس بعضهم فى حمأة جهله بالإسلام حتى ارتدوا عنه سراً أو جهراً زاعمين أن تعاليمه هى التى أضعفتهم وأضاعت عليهم ملكهم ، والتمسوا هداية غير هدايته ، ليقيموا دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين [1] إن الفهم السليم لمضامين الدين ونصوصه كان لسلفنا فيما مضي كالغذاء الصالح للجسم السليم يزيده قوة ويحفظ له حياته ويعوضه عن كل ما ينحل من الدقائق الميتة مادة حية خيرا منها ثم صارت تلك النصوص والحكم في طور الضعف كالغذاء الجيد في الجسم العليل لا يزيده إلا ضعفا وانحلالا إذ صاروا يفهمون منها مثلا أن الكسل والخمول والتوكل والفقر والذل من مقاصد الدين ، فصاروا لا يستفيدون منها إلا ضعفا وعجزا ولا يزدادون مع ذلك إلا حرصا ودناءة وبخلاً) [2] فعدم الفهم لمفردات الإسلام جعلت إدراك المسلمين لعلم السنن إدراكاً غائماً يفسر الظواهر بغير أسبابها ويعللها بغير عللها ويربط النتائج بغير مقدماتها .

٢- التقليد :

والسبب الثاني من أسباب عدم انتفاع المسلمين بهذا العلم هو التقليدو يتحدث الأستاذ الإمام عن ذلك ويبين أن التقليد سبب من أسباب انصرافهم عن توظيف سنن الله لصالحهم والإفادة منها فالمسلمون – مثلاً كان الإجدر بهم أن يكونوا أحق الناس بالصبر الذي له سنة ثابتة في النصر (فالصبر عون علي الجهاد ومنجاة من جميع الشدائد والأهوال وكانوا أحق الناس بالشكر ،فالشكر سبب للمزيد من النعم،

---

(١) انظر المنار ج ٨ ص ٩٧ بتصرف يسير

(٢) انظر المنار ج ٧ ص ٤١٤ ٤١٥ وانظر محاور المشروع الفكري ص ٤٥ وما بعدها .

ولو كانوا مهتدين بوحي السماء وسنن الله في هذه الأشياء وأن الله تعالي في خلقه سننا في جعلهم خلائف في الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات لكانوا أعظم الناس ملكاً وأعدلهم حكما وأوسعهم علما وأشدهم قوة وأكثرهم ثروة وكذلك كان به سلفهم ، وقد أخبرهم الله أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ،ولكن التقليد أضلهم عن تدبر القرآن، والاتكال علي الميتين حال بينهم وبين سنن الله في هذا الإنسان ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى *وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ "[1] فالتقليد الذي أصبح غشاوة علي الأعين حال بينهم وبين هداية الله تعالي وسننه في الأنفس والآفاق .

٣- عدم تدوين علم السنن :

وعلي الرغم من أن القرآن الكريم حافل بقواعد هذه السنن أو علم الاجتماع كما يسمي إلا أن المسلمين لم يلتفتوا إليه بصورة مناسبة لقيمته وحاجتهم الماسة له ومن أسباب ذلك عدم التدوين لهذا العلم (لقد جاء في القرآن الكريم الكثير من قواعد هذا العلم فغفل أكثر المفسرين عنه ولم يهتد إلى فقه بعضه إلا القليل منهم إذ لم يكن هذا العلم مدونا فى عهدهم فينبههم إلى ذلك)[2] فعدم تدوين علم السنن كان سبباً من أسباب انصراف المسلمين عنه أو عدم التفاهم إليه على الأقل من هنا يرى الأستاذ الإمام وجوب تدوين علم السنن حتى تفيد منه الأمة وتحسن توظيفه فيقول (إن إرشاد الله إيانا إلى ان له فى خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه فيجب على الأمة فى مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد إليه القرآن بالإجمال وقد بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه والعلم بسنن الله تعالى من اهم العلوم وأنفعها ، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا بالسير فى

---

(١) طه ١٢٣ -١٢٥ وانظر المنار ج٨ ص٢٢٣.
(٢) تفسير المنار ج٤ص٣٤و٣٥

الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها ولا يحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها الأصول والقواعد) [١] فتدوين العلم باب من أبواب إظهاره وإشهاره ودلالة الناس على الانتفاع به

٤- البعد عن هداية القرآن والاعتماد على كتب الجدل

ومن الأسباب التي يرى الأستاذ الإمام أنها صارف من صوارف المسلمين عن إدراك علم السنن بعدهم عن هداية القرآن في أمورهم العامة والخاصة (واعتمادهم على كتب الكلام الجدلية ، والتي ألفت في الرد على فلسفة نسخت ،وبدع باد أهلها ، وكتب الفقه التقليدية الخالية ، وكتب الفقه التقليدية الخالية من جل هداية القرآن والسنة) [٢] ويؤكد – رحمة الله– في موطن آخر على أن سبب قصور المسلمين في علم السنن تركهم لهداية القرآن الكريم واعتمادهم على الكتب الجامدة حتى يرى أن ذلك لم يكن فقط سبباً في جهلهم بعلم السنن بل هو سبب لضياع ملكهم فيقول (ترى شعوب المسلمين يجهلون السنن الإلهية وما ضاع ملكهم وعزهم إلا بجهلها والذي كان سبباً لعدم الاهتداء بها في العمل وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحرب وما يتعلق بها) [٣] فترك المسلمين لروح القرآن، وهجرهم لهدايته، واعتمادهم على كتب الكلام الجدلية ،وكتب الفقه الجامدة جعل إدراكهم لحديث القرآن عن السنن إدراكا ضعيفا ،وتوظيفهم لها أكثر ضعفاً.

موقف الغرب من علم السنن

وفي الوقت الذي يبتعد فيه أهل القرآن عن روحه وعطائه وصفائه ورواثه نجد غير المسلمين يعيشون بروح القرآن وإن لم يكونوا مسلمين ، فنرى موقفهم من

(١) انظر تفسير المنار ج٤ ص١١٤و١١٥ وانظر ج٩ ص٤٨٢و٤٨٣.
(٢) انظر المنار ج٩ ص١٨.
(٣) المنار ج٩ ص٤٨٢.

السننَ موقفاً جادا فاعلا وقويا مؤثرا ينتفعون بما يراه أسلافنا كابن خلدون وغيره فينهضون حين نتعثر نحن في خطواتنا الأولى ، يرى الأستاذ الإمام هذه الظاهرة فيذكر (أن غير المسلمين أكثر سيرا في الأرض منهم وأشد استنباطا لسنن الاجتماع وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين والاتعاظ بجهل المعاصرين)[1] كما يرى أن غير المسلمين أفادوا بما كتبه ابن خلدون في علم السنن وبنوا عليه ووسعوه فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم يفيدوا منه كما يجب) [2] كما يرى أن سبب بقاء ملك الغرب أنه يراعي هذه السنن حتى في استعماره للبلاد المسلمة ، فهو يحرص على ألا يقع فيما وقع فيه حكام هذه البلاد من ظلم وعدوان ، فيقول (كنا نرى الذين ورثوا ممالك المسلمين متعظين بمثل هذه الآية [3] من بعض الوجوه فهم على كثرة ذنوبهم بالظلم وإفساد العقائد والأخلاق وسلب الأموال يرون أن يكون ظلمهم أقل من حكام أهل البلاد الذين أضاعوها ؛ وعقوله تبحث دائما في الأسباب التي يخشى ان تكون سببا لسلبها فهم لأجل اتقائها آذانهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر متعلق بأمرها وأمر أهلها وشؤون الطامعين فيها حذرا من ان يسلبوهم إياها[4] إلى هذا الحد تصل معرفة هؤلاء الذين لم يهتدوا بهدى السماء لعلم السنن وإلى هذا الحد تصل إفادتهم منه .

<u>العلم بالسنن وفقدان هداية السماء :</u> العلم بالسنن مع فقدان هداية السماء لا يغني عن المرء شيئاً ورغم إشارة الأستاذ الإمام إلى اهتمام الغرب بعلم السنن إلا أنه يؤكد على أن هذه المعرفة معرفة ناقصة لا تكتمل إلا بوصلها بهداية السماء فيقول (إن هؤلاء وإن كانوا على علم واسع بسنن الله في أحوال البشر وسائر أمور الكون ونالوا به ملكا

---

(١) تفسير المنار ج٤ ص ١١٨ و ١١٩.
(٢) تفسير المنار ج٨ ص ٩٧ .
(٣) وهي قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ الأعراف آية ١٠٠.
(٤) تفسير المنار ج٩ ص٤٨٣.

عظيما فى الأرض فأكثرهم يجهل مصدر هذه السنن وحكم الله تعالى فيها ولا يعتبرون حق الاعتبار حق بما تعقب الشرور والمعاصي من الفساد فى الأرض ... فالعلم بسنن الاجتماع والعمران لا يغنى عن هداية الدين التى توقف أهواء البشر ومطامعهم أن يجنح إلى مالا غاية له من الشر)[١] فثبت بذلك أن علم السنن وحده لا يكفى إذا كان منقطعا عن وحي السماء وما أحرى المسلمين اليوم بالمزج بين تعاليم السماء ومعطيات السنن حتى يكونوا بحق خير امة أخرجت للناس .

---

(١) المنار ج٩ ص ١٩.

المبحث الرابع

عناية النبيﷺ والصحابة الكرام بعلم السنن

في نظر الأستاذ الإمام

حفلت سنة النبي- صلى الله عليه وسلم- بشقيها القولي والعملي بالعناية بإبراز سنن الله تعالى في خلقه والتعامل معها بل توظيفها إلى أقصى درجات التوظيف والمتأمل لهذه السنة التي هي تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .. الناظر لهذه السنة يجد جانب العناية بموضوع القوانين التي تحكم الناس وحياتهم والتي عبر عنها القرآن الكريم بسنة "الله" أو "سنتنا" واضحة أي وضوح بينة أي بيان .

فقد صور الرسول-ﷺ- المجتمع الإنساني في تمسكه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو تركه بصورة ناطقة واضحة هي صورة مجتمع في سفينة يريد بعض ركابها خرق المجتمع لمصلحة ذاتية وهدف شخصي وراحة جسدية ، فإن وقف الباقون مكتوفي الأيدي غاضي البصر عن قيمة الأمر والنهي هلكوا وهلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً . وذلك ما يصوره قوله-ﷺ - فيما أخرجه البخاري "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة أصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إن أرادوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"(٢) كذلك في تصويره-ﷺ- لسنة الائتلاف بربط أواصر الجسد الواحد بصورة جهاز واحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله بقوله "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"(٣) . ويعلم

---

(١) المنار ج٩ ص ١٩.
(٢) المنار ج٩ ص ١٩.
(٣) المنار ج٩ ص ١٩.

صلوات الله وسلامة عليه أصحابه مبادئ هذا العلم ليرسخ في أذهانهم أن لله في كونه سنناً ثابتة وقوانين راسخة وأن الحياة لا تمضي هكذا سبهللي ولا تسير عبثاً حيثما اتفق عندما يسأله بعض الناس نوالاً فيرشده إلى سنة الله في الرزق فيأمره بأن يذهب ويحتطب ...

والذي يسأله يا رسول الله أترك ناقتي وأتوكل على الله يخبره-ﷺ- بطريقة عملية مركزة أنه لا تعارض بين السنن الربانية والأخذ بالأسباب ،بل إن الأخذ بالأسباب من سنن الله تعالى في عباده فيقول "بل اعقلها وتوكل".

وقد رصد الأستاذ الإمام محمد عبده-رحمة الله- هذا الجانب من جوانب عناية النبى (ﷺ) بفقه السنن وتوظيفه لها فيقول مثلاً عن الحديث عن تطبيق الرسول(ﷺ) لسنة الله في النصر ، "إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم بإعلام القرآن أن للنصر في القتال أسباباً حسية ومعنوية وأن لله تعالى فيها سنناً مطردة .. وكان يعلم مع ذلك أن الله تعالى عناية وتوفيقاً يمنحه من شاء من خلقه فينتصر به الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض سنته وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله.

فتعامل النبي – ﷺ – مع سنن النصر والقتال دليل على علمه ﷺ – بهذه القواعد والقوانين المطردة التى تحكم السلوك البشري ولايتوقف علمه – ﷺ – بها عند إدراكها ،بل يعلم كيفية توظيفها ،ويعلم خصائصها وطبيعتها ويؤكد الإمام محمد عبده على ذلك بأنهﷺ

(كان يعلم أن شئون الاجتماع البشرى كسائر أطوار العالم ، لله تعالى فيها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل كما تكرر ذلك في السور المكية بوجه عام ثم ذكر في شأن القتال بوجه خاص الكلام على غزوة أحد من سورة آل عمران المدنية﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [1] ،ثم في سورة

(١) آل عمران ١٣٧

الأحزاب المدنية التي نزلت في غزوتها التي تسمى غزوة الخندق أيضاً باسمها وكان يعلم أن سننه تعالى في القتال كسائر سننه في أنها لا تبديل لها ولا تحويل من قبل نزول ما أشرنا إليه في هاتين السورتين المدنيتين التين نزلتا بعد غزوة بدر فلذلك كان خوفه على المؤمنين عظيماً.

من هنا نؤكد علم النبي بسنن الله في خلقه وقوانينه في عباده ونؤكد على تطبيق النبي لهذه القوانين في حياته .

علم الصحابة (رضي الله عنهم) الكرام بالسنن وعنايتهم بها :

وإذ انظرنا إلى الصحابة الكرام وجدنا أن هذا الجيل الرائد القائد الذى نشر الدين وفتح البلاد وهدى العباد إلى الله تعالى كان على وعى لافت للنظر ويقظة مثيرة للانتباه بهذه السنن الثابتة كما يرى الأستاذ الإمام الذى يقول " وإنني لا أشك فى كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار فى الحرب وغيرها ،وربما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط ما كانوا يفهمون به المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها فى حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التى استولوا عليها وما كانوا عليه من العلم والتجربة والعمل أنفع من العلم النظرى المحض، وكذلك كانت علومهم كلها ولما اختلفت حالت العصر اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية سم بما شئت فلا حرج فى التسمية)[1].

القرآن الكريم يعلم الصحابة (رضي الله عنهم) سنن الله فى الإنسان :

يرى الأستاذ الإمام رحمة الله أن القرآن الكريم يعلم الصحابة السنن والقوانين الربانية التى لا تتغير ولا تتبدل في قوله تعالى﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ

---

(١) المنار ١١٥/٤.

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] .أى إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسنن فى نظام الاجتماع بحيث صار هذا الإيمان وصفاً ثابتاً لكم فى ضمائركم وأعمالكم فأنتم الأعلون، وإن أصابكم ما أصابكم ،وإن كان الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن ما أصابكم يعدكم للتقوى فتستحقون تلك العاقبة وهى علو السيادة عليكم وتلك الأيام نداولها بين الناس أى نصرفها فنديل تارة لهؤلاء والمعنى أن المداولة الأيام سنة من سنن الله فى الاجتماع البشري، فلا غرو أن تكون مرة للمبطل ومرة للمحق ،وإنما المضمون لصاحب الحق أن تكون العاقبة له إنما الأعمال بالخواتيم وهذه قاعدة كقاعدة (قد خلت من قبلكم سنن) أي هذه سنة من تلك السنن وهى ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين والمبطلين والمداولة فى الواقع تكون مبنية على أعمال الناس فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافاً وإنما تكون لمن عرف أسبابها وراعاها حق رعايتها أي إذا علمتهم أن ذلك سنة فعليكم أى تنهوا وتضعفوا بما أصابكم لأنكم تعلمون أن الدولة تدول"[2].

وقد ذكر الأستاذ رشيد رضا – رحمه الله– أن الأستاذ الإمام قال فى درسه رأيت النبي–ﷺ– فى الرؤيا منصرفاً مع أصحابه من "أحد" وهو يقول :"لو خيرت بين النصر والهزيمة لاخترت الهزيمة" أي لما فى الهزيمة من التأديب الإلهي للمؤمنين وتعليمهم أن يأخذوا بالاحتياط ولا يغتروا بشئ يشغلهم عن الاستعداد وتسديد النظر وأخذ الأهبة وغير ذلك من السنن[3]

فالقرآن فى نظر الأستاذ الإمام يلفت نظر الصحابة الكرام إلى أن الأيام دول مرة للمحق على المبطل ومرة للمبطل على المحق ولكن العاقبة فى النهاية للمتقين فلابد أن تعلموا ذلك وتدركوا هذه المداولة بين الحق والباطل فلا يصيبكم الوهن والحزن لأنها سنة الله الماضية ومشيئته النافذة .

---

(١) آل عمران ١٣٩ .
(٢) المنار ١٢٠/٤-١٢٢ بتصرف واختيار .
(٣) المنار جـ ٤ ص١٢٠ .

استغفار الصحابة عند شعورهم بالتقصير في التعامل مع السنن :

هذا ويرى الأستاذ الإمام أن القرآن الكريم إذا كان قد دعا إلى الأخذ بالسنن الجارية والتعامل معها وإحسان توظيفها فإنهم -ﷺ- عليهم كانوا يستغفرون الله تعالى إذا شعروا أنهم قصروا في التعامل مع هذه السنن (وما كان قولهم إلا أنهم قالوا بنا اغفر لنا ذنوبنا) أي ما كان لهم من قول في تلك الحال التي اعتصموا فيها بالصبر والثبات وعزة النفس وشدة البأس إلا ذلك القول المنبئ عن قوة إيمانهم وصدق إرادتهم وهو الدعاء بأن يغفر الله لهم بجهادهم ما كانوا ألموا بع من الذنوب والتقصير في إقامة السنن أو الوقوف عند ما حددته الشرائع (وإسرافنا في أمرنا) للغلو فيه وتجاوز الحدود التي حددتها السنن له ... فإن النصر بيدك تؤتيه من تشاء بمقتضى سننك ومنها أن الذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح ولذلك سألوا الله أن يمحو من نفوسهم أثر كل ذنب وإسراف وأن يوفقهم إلى دوام الثبات[1]

وعندما يتناول الأستاذ الإمام تفسير قوله تعالى ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] يرد على اعتراض قد يرد في ذهن بعض السامعين على هذه من أن ثواب الدنيا لا يصل إلى الذين قضوا نحبهم قبل رؤية النصر فأين ثواب الدنيا وزهرتها لهم إذاً فيقول : " ولا يعترض على ما أثبتته الآيه بمثل وقعتي الرجيع وبئر معونة، بحيث أن من قتلوا هنالك لم يؤتوا ثواب الدنيا ، فإن إيثار ثواب الدنيا مشروط باتباع السنن والأخذ بالأسباب ،وفي وقعة الرجيع قد اختلفوا في النزول على حكم المشركين فكان ذلك تقصيراً منهم ،وفي وقعة بئر معونة قد قصروا في الاحتياط إذ أمنوا لمن لا يصح أن يؤمن له فكان ذلك جزاء التقصير وموعظة للمسلمين ليكونوا دائماً حذرين محتاطين غير مقصرين ولا مسرفين

(١) انظر المنار جـ ٤ ص١٤٢ بتصرف واختصار .
(٢) آل عمران ١٤٨ .

وقد صرح بما اتفق عليه المفسرون من كون الآيات تأديباً للمؤمنين وتوبيخاً لما فرط منهم ما فرط والأمر ظاهر كالشمس في الضحى أو أشد ظهوراً[١]" فهو يرى أن تقصير المسلمين في التعامل مع السنن يفوت عليهم ثواب الدنيا بما تحمله هذه الكلمة من معانٍ ولا يغني عنهم علمهم النظرى الذى لم يوظف هذه السنن ويفيد منها خير إفادة.

أسباب فهم الصحابة (ﷺ) لعلم السنن في نظر الأستاذ الإمام:

الصحابة الكرام هم الجيل الأول الذى عاين التنزيل وشاهد أحوال وقرائن نزول القرآن الكريم ففهموا من القرآن ما لم يفهمه غيرهم وأعانهم على التجاوب مع أفكاره ومضامينه غير واحد من الأمر منها :

أ- وراثتهم اللغة العربية واتباعهم لسنة النبي-ﷺ- :

يرى الأستاذ الإمام – رحمه الله – أن وراثة الصحابة للغة القرآن واتباعهم للسنة النبوية كان عاملاً من عوامل إداركهم لسنن الله تعالى الذي يتحدث عنها القرآن الكريم ،وفقدان كثير من غيرهم لهذه المؤهلات ، وإن كانوا من أهل العلم والشغل بالقرآن الكريم وعلومه أضاعت من أيديهم هذه المفاهيم القرآنية والسنن الربانية التى عنى بها القرآن الكريم أى عناية فيقول : (إن علماء الصحابة –ﷺ– والتابعين وأئمة الأمصار الذين ورثوا لغة القرآن بالسليقة ولغة النبي -ﷺ- وبيانه بالإتباع كانوا يفهمون هذه السنن الإلهية في الخلق ويهتدون بها ،وإن لم يصنعوا لها قواعد علمية وفنية لتفقيه من بعدهم فيها ،ثم زالت سليقة اللغة من علماء المولدين فصاروا يفسرون القرآن بقواعد الفنون التى وضعوها للغة وللدين بقدر معارفهم المزوجة بما ورثوا وما كسبوا من الشعوب التى اهتدت بالإسلام ولم يكن على الاجتماع مما دونه أحد فلهذا لا نرى في تفاسيرهم شيئاً من هذه السنن الخاصة بسياسة الأمم بل تنكبوا هداية القرآن

---

(١) انظر المنار جـ ٤ ص١٤٢ بتصرف واختيار

فيها فكانت عاقبة أمرهم ما تشكو منه وتحاول تلافيه)[1] ويتضح من كلام الإمام – رحمه الله – عدد من المفاهيم منها :

أن الأسباب التي أعانت الصحابة على فهم السنن وأداركها تطبعهم باللغة العربية لغة القرآن والتنزيل .

١- إتباعهم سنة النبي -ﷺ- اتباعاً علمياً وتأثرهم بيانه.

٢- أن التابعين وعلماء الأمصار نالهم شيء من هذا الإدراك لأنهم ساروا على مناهج الصحابة الأكرمين.

٣- أنه من بعد هؤلاء وهؤلاء لما زالت سليقتهم وأخذوا يحشدون في تفسيرهم للقرآن القواعد والفنون التي وضعوها للغة ، وضاعت منهم مضامين كثيرة ومفاهيم عديدة من مفاهيم القرآن الكريم.

<u>ب- علمهم ﷺ بأحوال الناس وطبائعهم واستعداداتهم وأخلاقهم :</u>

من أسباب إدراك الصحابة لعلم السنن كما يرى الإمام محمد عبده علمهم بحال من يتعاملون معهم ومعرفتهم باستعداداتهم وأخلاقهم وقد دلل على ذلك بقوله : (روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه " أنسب العرب" وليس معنى كونه أعلى بالأنساب أنه كان عنده كتاب " بحر الأنساب" يراجع فيه وإنما معناه أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها وتاريخ كل قبيلة وسابق أيامها وأخلاقها كالشجاعة والجبن والأمانة والخيانة ومكانها من الضعف والقوة والغنى والفقر وما كان من إقدامه مع لينه وسهولة خلقه التي يعرفها له كل أحد حتى الإفراج على حرب أهل الردة إلا بهذا العلم الذى كان به على بصيرة فلم يهب ولم يخف وقد خاف عمر وأحجم على شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين أى خاف أن تضعف شوكة الإسلام حتى قال أبو بكر: "والله لو منعوني عقالاً مما كان يؤدونه إلى رسول الله- ﷺ - لقاتلتهم عليه "فهذه هي قوة العلم لا قوة الجهل)

---

(١) المنار ج١٢ ص ٢٠٤، ٢٠٥.

فالأستاذ الإمام – رحمه الله – يرى أن علم الصحابة الكرام بأحوال الناس وأنسابهم جزء من علمهم بسنن الله تعالى في الإنسان ولعل هذا ما ظهر في تصرف الصديق أبي بكر – رضي الله عنه – في حروب الردة كما ذكر الأستاذ الإمام وكما ظهر كذلك في تخير الصديق – رضي الله عنه – من يدعوهم إلى الإسلام حتى كان أكثر المبشرين بالجنة قد دخلوا الإسلام على يد أبي بكر – رضي الله عنه – .

جـ – علمهم ﷺ بالبلاد وأحوالها :

ومن الأسباب التي يذكرها الأستاذ الإمام ويرى أنها كانت معيناً للصحابة – ﷺ – على إدراك السنن وتوظيفها والاستفادة منها ، ويدعوا القائمين على أمر الإسلام بالأخذ بها : العلم بأحوال البلدان أو بتعبير آخر بتقويم البلدان وبالجغرافيا ولذلك أقدموا على الفتوح ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح للقتال فيها لهلكوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم ومن قرأ ما حفظ من خطبهم وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم في تدبير الأعمال يظهر له ذلك بأجلى بيان) [١]

ويرى الأستاذ الإمام – رحمه الله – أن هناك علاقة وثقي وآصره شديدة بين علم التاريخ وتقويم البلدان ومعرفة أحوالها وعلم السنن وإلا لما صنع الشافعي مذهباً جديداً بعد مجيئه مصر غير الذي وضعه عند أهل العراق ، ولما خالف أبو يوسف أستاذه أبا حنيفة مما يرجع الكثير منه إلى ما اختبره من أحوال الناس [٢].

د – علم الصحابة ﷺ بعلم النفس وأطوارها وأحوالها :

كذلك من الأسباب التى يذكرها الأستاذ الإمام – رحمه الله – ويؤكد على أنها كانت سبباً من أسباب إحسان تعامل الصحابة – ﷺ – مع السنن بعلمهم بأحوال النفس البشرية (فقد كانوا على حظ عظيم من هذا العلم وذلك بسلامة نظرتهم وذكاء

---

(١) المنار جـ ٤ ، ص٣٣.
(٢) انظر المنار جـ ٤ ، ص٣٣ ، ٣٤ بتصرف كبير .

قريحتهم وبما هداهم إليه القرآن الكريم بآياته والرسول - ﷺ - ببيانه وسيرته وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية، فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له من الحكماء أو أرسخ كما يدل عليه ما يؤثر عنهم من الحكم وما نجحوا به في الدعوة وظهروا في مواطن الحجة ، وينقل الأستاذ رشيد رضا – رحمه الله – عبارة الأستاذ الإمام بنصها في هذه المسألة وهي " ولا تظنوا أن الصحابة لم يكن عندهم شيء من هذا العلم إذ لم يكن يتدارسونه في الكتب ويتلقونه عن المعلمين فإنكم إذا قرأتم التاريخ وعرفتم كيف كانوا يتجالدون في مواقع الخطب بمجرد الفطرة التي بعدنا عنها أمكنكم أن تعرفوا مكانهم منه ") [1]ويؤكد الأستاذ الإمام – رحمه الله – على هذا المعنى وهو علم الصحابة – بأطوار النفس ووظيفتها بقول عمر – رضي الله عنه – للمرأة التي صرحت لزوجها بأنها لا تحبه " إذا كانت إحداكن لا تحب الرجل منا فلا تخبره بذلك فإن أقل البيوت ما يبنى على المحبة وإنما الناس يتعاشرون بالحسب والإسلام " يرى أن هذه الكلمة الجليلة لا تخرج بالبداهة هكذا إلا من فم حكيم قد انطوى في نفسه على علم الأخلاق وعلم الاجتماع أيضاً ووقف مع ذلك على أحوال الناس وأخبرتهم أتم اختبار[2] " .

ومن هنا يمكننا أن نقول إن النبي - ﷺ - كان على علم بالسنن الربانية بل كان يوظفها ويحسن التعامل معها ومواقفه -ﷺ- في الحرب والسلم والتربية والقيادة واستيعاب شتى أنواع النفوس مهما اختلفت أنماطهم وطبائعهم وتباعدت منازلهم ومشاربهم دليل على ذلك ولا يغيب عن بالنا كيف كان الرسول - ﷺ - يحسن التعامل مع الناس حتى مع أعدائه وذلك نابــع من خبرته -ﷺ- بسنن الله تعالى ، في تغيير الأنفس وهداية الناس كما يمكننا أن نقول من خلال هذه الرؤية التي طرحها الأستاذ الإمام أن الصحابة -ﷺ- كانوا على علم بالسنن وتصرفاتها وأنها لا تتبدل ولا تتغير

---

(١) انظر المنار جـ٤ ، ص٣٣ ، ٣٤ بتصرف كبير.
(٢) انظر المنار جـ٤ ، ص٣٣ ، ٣٤ بتصرف كبير.

وأنهم كانت لديهم أسباب تعينهم على فهم هذه السنن منها دعوة القرآن الكريم نفسه لذلك وحثهم عليه ، واتباعهم لسنة النبى - ﷺ - وتأثرهم ببيانه وعلمهم بأحوال الناس وطبائع النفوس وإدراكهم لتقويم البلاد سهلها وحزنها وأخضرها ويابسها وعلمهم بالأخلاق وأطواء النفس إلى غير ذلك مما يفتقده المسلمون عامة ودعاتهم على وجه أخص .

المبحث الخامس

خصائص السنة الربانية في نظر الأستاذ الإمام

المتأمل فى لفظة السنة من الناحية الدلالية ،والمتابع لدوران الكلمة فى القرآن الكريم يجد أنها تتسم بعدد من السمات والخصائص ، ومن أبرز هذه الخصائص ما يلى :

١- خصيصة الاطراد وعدم التوقف: فالسنة الربانية مطردة لا تتوقف لغاية ماضية لا تنتهى عند حد ، وقد عالج الأستاذ الإمام هذه الخصيصة غير مرة فى تفسيره وتناوله للآيات الكريمة فيقول – رحمه الله – وهو يصور نظرة الصحابة رضوان الله عليهم وثقتهم بنصر الله تعالى لهم على كل حال وكيف علمهم الله – عز وجل – أن هذا النصر يمضي بسنة مطردة لا تتخلف ولا تتبدل : ، " كان المؤمنون السابقون إلى الإسلام على ثقة من وعد الله تعالى بنصر نبيه وإظهار دينه لم يزلزل إيمانهم بذلك ضعفهم ولا قتلهم ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم، وكانت وقعة بدر أول تباشير هذا النصر فلما رأوا أن الله تعالى نصرهم على قتلهم وضعفهم ،بعد ما كان من دعاء الرسول واستعانته بربه زادهم ذلك إيمانا بأنهم هم المنصورون، ولكن وقع فى نفوس الكثيرين إن لم نقل فى نفوس الجميع أن نصرهم سيكون بالآيات والعناية الخاصة من غير التزام بالسنن الإلهية فى الاجتماع البشرى وأن وجود الرسول فيهم ودعاءه على أعدائهم هما أفعل فى التنكيل بالكفار من التزام الأسباب الظاهرة التى من أهمها طاعة القائد والتزام النظام العسكري وغير ذلك، ولكن الإسلام دين الفطرة لا الخوارق – كانت عاقبة ذلك أن قصروا في الأسباب يوم "أحد" حتى ظهر عليهم العدو وجرح الرسول نفسه – وإن لم يقصر هو – ولم ينهزم كما هي السنة الاجتماعية التى بينها الله تعالى فى قوله﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1] لقد كان ذلك فرصة لإعلام المؤمنين بحقيقة

---

(١) الأنفال الآية ٢٥.

من حقائق دين الفطرة وهى أن الرسول بشر ،وأن الأمر بيد الله يدبره بمقتضى سننه[١] ، لقد حرص القرآن الكريم فى غير مرة على لفت أنظار الناس إلى أن كل شيء عند الله بمقدار كما تجرى الشمس لمستقر لها بتقدير العزيز العليم وكما قدر القمر منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون كل يجرى لأمد محدود وأجل مؤقت لا يتعداه ولا يتحداه ولا يتعداه فكذلك الجزاء المرتب على سلوك البشر يمضي حسب تقدير العزيز العليم . وعندما يتناول الأستاذ الإمام — رحمه الله — الحديث عن عقاب المكذبين، وانه يجري على أشباههم ما يجري عليهم يؤكد على هذه الخصيصة من خصائص السنن الربانية فيقول: " إن ما يحفظ التاريخ من وقائع الأمم من دأبها وعاداتها فى الكفر والتكذيب والظلم فى الأرض ومن عقاب الله إياهم هو جار على سنته تعالى المطردة فى الأمم ولا يظلم الله تعالى أحداً بسلب نعمة ولا إيقاع نقمة وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم هذا هو المطرد فى كل الأمم فى جميع الأزمنة "[٢] ولو فهم المسلمون هذا المعنى وأدركوا هذا الاطراد الكامن فى سنن الله تعالى لما غرتهم الأماني بأنهم مسلمون وخدعتهم المفاهيم المغلوطة حتى صاروا فى نهاية القافلة وذيل الأمم ، لقد حفلت آيات القرآن الكريم بهذا المعنى وهو اطراد السنن فلفت أنظار الناس إلى مصارع الغابرين ودعا للنظر والاعتبار ،ووصف أهل الاعتبار بأنهم أهل الأبصار فقال " فاعتبروا يا أولي الأبصار "[٣].

٢- سنن الله حاكمة علي الجميع :

إن سنن لله تعالي حاكمة مهيمنة تمضي علي الجميع وينطبق علي عموم البشر لا تخص طائفة دون طائفة ولا أهل دين بأعيانهم دون غيرهم وهذا ما صورة القرآن

---

(١) انظر تفسير المنار ج٤ ص ٢٩٧ . ٩٨ بتصرف واختيار.
(٢) انظر تفسير المنار ج١ ص ٤١ وانظر تفسير جزء عم ص ٦٠، ١٧، ٦١ .
(٣) الحشر من الآية ٢ .

الكريم بقوله: " قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحي إلي وما أنا إلا نذير مبين " [١].

" وإن سنن الله حاكمة علي رسله وأنبيائه كما هي حاكمة علي سائر خلقه فما من قائد عسكر يكون في الحالة التي كان عليها المسلمون في أحد مثلا ويعمل معه ماعملوا إلا وينال منه أي خالفه جنده ويتركون حماية الثغر الذي يؤتون من قبله ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم وما يعبر عنه بخط الرجعة من مواقعهم ،والعدو مشرف عليهم إلا ويكونون عرضة للانكسار إذا هو كر عليهم من ورائهم فما ذكر من أن لله تعالي سننا في الأمم هو بيان لجميع الناس لا ستعداد كل عاقل لفهمه واضطراره إلى قبول الحجة المؤلفة منه إلا أن يترك النظر أو يكابر ويعاند [٢] وهذه الحاكمية التي تمضي بها السنن علي الخلق لا تحابي أحداً ولا تجامل فرداً بل تمضي مضي المادة الصماء والتي نراها في حياتنا رأي العين ،فلماء يغلي عند درجة معينة، ويتجمد عند درجة ثابتة دون استثناء، ولفت الأستاذ الإمام إلى جزئية هامة وهي :أن الإنسان مهيأ لإدراك هذه السنن ،وذلك في قوله :كل فرد مستعد لفهم السنن مضطر إلى قبول الحجة المبينة علي هذه السنن والمؤلفة منها إلا أن يكابر ويعاند ويترك النظر .

٣- عدم التبدل أو التحول : ومن خصائص السنن كذلك أنها لا تتبدل ولا تتحول وقد دلت آيات القرآن الكريم علي هذه الخصيصة صراحة " ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [٣] وقوله تعالي﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [٤] وقوله " ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ

(١) الأحقاب الآية ٩
(٢) انظر تفسير المنار ج٤ ص ١١٨
(٣) الفتح الآية ٢٣ ،
(٤) الإسراء الآية ٧٧

اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[1] والإمام محمد عبده – رحمه الله – عندما يتحدث عن السنة وتطبيقها علي المسلمين يبرز هذه الخصائص ويظهر تلك السمات التي اشتمل عليها القرآن الكريم في حديثه عن السنن ويذكر أنها لا تتبدل ولا تتحول ومعني أنها لا تتبدل :أي لا تتغير ولا تترك مسارها ،ومعني أنها لا تتحول: أي أنها لا تصرف عن هدفها ولا تزال عن غايتها وإلا لما عدت سنة من السنن نجد هذا واضحاً جلياً في فكر الإمام محمد عبده عندما يتناول الحديث عن السنن وعندما يسقط هذه السنن علي واقع المسلمين، فتراه مثلا عندما يتحدث عن قوله تعالي " ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [2] يري أولاً أن لفظة كلمة وإن كانت تدل في اللغة علي الجملة والطائفة من الكلام في معني واحد أو غرض واحد طال أو قصر فتسمي جملة " لا إله إلا الله " كلمة التوحيد وتسمي القصيدة من الشعر كلمة ،ويرفض رأي بعض المفسرين [3] ، الذين ذهبوا إلى أن المراد من الكلمة، القرآن ويري ذلك وإن كان جائزاً لغة إلا أنه ليس ظاهراً بمعني في هذه الآية . ويروي وأن الأصوب أن الكلمات هنا بمعني: السنن ومعني تمت :أي مضت سنتي بنصر المرسلين وخذلان الطغاة المفسدين لا مبدل لكلماته ، كما أنه لا تبديل لسنته " ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [4] . ويقول رحمة الله والتبديل التغيير بالبدل وهذه الجملة تعليل لما قبلها، والمعني أن كلمة الله تعالي في نصرك أيها الرسول وخذلان أعدائك قد تمت وأصبح نفوذها حتماً لا مرد له لأن كلمات الله التي هي من أفرادها لا مبدل لها إذ لا يستطيع أحد من خلقه أن يزيل

---

(١) الأنعام الآية ١١٥
(٢) فاطر الاية ٤٣،٤٢
(٣) انظر جامع البيان ج١ عند تناوله لهذه الآية والجامع لحكام القرآن فيما ينقله عن قتادة في تفسير هذه الآية .
(٤) الأحزاب الآية ٦٢.

كلمة من كلماته بكلمة أخري تخلفها ويمنع صدقها علي من وردت فيهم[١] . وعندما يتناول قوله تعالي ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[٢] يؤكد علي هذه الصفة من صفات السنن فيقول : ولو شاء تعالي ألا يفعل الشركاء ذلك التزيين أو المشركون ذلك القتل لما فعلوه وذلك بأن يغير خلقهم وسننه الحكمية فيهم ولكنه أخبرنا بأنه لا تبديل لخلقه ولا لسننه .. فله تعالي سنن في الاهتداء لا تتغير ولا تتبدل فلا يحزنك أمرهم ،فإن من سنته أن يغلب حقك باطلهم هذا معني الآية الموافق لكتاب الله ومقتضي صفاته وسننه في خلقه التي أخبر بأنها لا تبديل لها ولا تحويل [٣] ويتناول الحديث عن السنن في موضع آخر يبرز فيه صفاتها وأهميتها فيقول عن هذه الصفة " يصرح الكتاب الكريم أن لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل ... والذي ينادي به الكتاب أن نظام البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلي من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتي يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه فإن غفل عن ذلك النظام غافل فلا ينتظر إلا الشفاء وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه واتصل بالمقربين سببه فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر أتي لنا بأحكام تلك السنن فهو يجري مع طبيعة الدين وطبيعة الدين لا تتجافي عنه ولا تفر منه " [٤]فسنن الله تعالي لا تتبدل ولا تتغير إلا لما صح الأمر بالسير في الأرض لمعرفتها والاستفادة منها والاعتماد عليها في نقل حكم النظير إلى النظير .

---

(١) المنار ج ص ١١ ،١٢ .
(٢) الأنعام الآية ١٢٧ .
(٣) المنار ج ٨ ص ١١٠ ،١١ .
(٤) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٤، ٥٥

٤- عدم المحاباة أو المجاملة : إن سنن الله تعالي لا تحابي ولا تجامل ولو جاملت الأنبياء والمرسلين الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون ولا يخشون أحداً غيره ولكنها تمضي عليهم كما تمضي علي غيرهم بل تمضي علي أسوتهم وقدوتهم — محمد ﷺ الذي يذيل الشبهة المتعلقة بهذا التصور للسنن من عقول المسلمين حين قال " قال ماكنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم أن أبلغ إلا ما يوحي إلى وما أنا إلا نذير مبين [1] . يؤكد الأستاذ الإمام هذا المعني " إن الله تعالي العظيم الحكيم لا يحابي في سننه المطردة في نظام خلقه مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً لأجل اسمه ولقبه أو لانتسابه باسم إلى أصفيائه من خلقه بل كانت سننه حاكمة علي أولئك الأصفياء أنفسهم حتي إن خاتم النبيين - ﷺ قد شج رأسه وكسرت سنه وردي في الحفرة يوم أحد لتقصير عسكره فيما يجب من نظام الحرب وسنعي علي المسليمن السائؤين في غيهم السادرين في غفلا تهم هذا الغياب عن ضوابط الكون وقوانين الحياة حتي صاروا ذنباً بعد أن كانوا قادة ورادة فيقول " فإلي متي أيها المسلمون هذا الغرور بالانتماء إلى هذا الدين وأنتم لا يقيمون كتابه ولا تعتدون ولا تعتبرون بما فيه من النذر ألا ترون كيف عادت الكرة إلى تلك الأمم عليكم بعد ما تركوا الغرور واعتصموا بالعلم والعمل بما جري عليه نظام الاجتماع من السباب والسنن حتي ملكت دول الجانب اكثر بلادكم .. فاهتدوا بكتاب الله الحكيم وبسنته في الم واتركوا وساوس الدجالين الذين يدسون فيكم نزعات الشرك فيصرفونكم عن قواكم العقلية والاجتماعية [2] بهذه اللهجة الجازمة الصارمة بنفث الأستاذ الإمام من روحه في هذا الجسد الإسلامي الخامل عله يفيق من سكرته ويصحو من غفوته بل غفلته ليساير

---

(١) الأحقاب الآية ٩ .
(٢) تفسير المنار ج ٥ وانظر في هذا المعني ج و ص.

ركب الحضارة الذي لا يتوقف وإن توقف عنه المسلمون . إن هذه الخصائص التي ذكرها الأستاذ الإمام في تناوله لآيات القرآن الكريم تدل علي عمق ها الفهم السنن لديه – رحمه الله – كما تدل علي ارتسام هذه المنظومة الكاملة من معارف السنن وخصائصها حتي لا تكاد تمر آية من آيات لقرآن الكريم إلا ويربطها بعلم السنن ويسقطها علي واقع المسلمين وكأنه يحقق مع تلميذه الرائد – السيد رشيد رضا – هذا الوصف الذي يشبه الشرط – الي وصف به تفسيره وهو أنه كتاب يعني ببيان حكم التشريع وسنن الله في الإنسان وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان ويوازن بين هدايته وفاعلية المسلمين في هذا العصر .

وخلاصة القول : أن السنن الربانية تتسم كما يري الأستاذ الإمام بعدد من الخصائص هي :

١- الاطراد وعدم التوقف .　　٢- الحاكمية عل الجميع

٣- عدم التبدل أو التحول .　　٤- عدم المحاباة أو المجاملة

المبحث السادس
العلاقة بين المشيئة الإلهية والسنن الربانية

الناظر بتأمل في سنن الله تعالي الجارية وانضباطها واطرادها والناظر أيضا في مشيئة الله تعلي المطلقة والتي لا تقف عند حد يدرك أنه لا تعارض بين السنن والمشيئة فإن السنن الجارية تمضي حسب مشيئة الله تعالي والأسباب التي نراها ليست ذات حركة بذاتها أو نتيجة بنفسها فقد تتدخل المشيئة فتقول للنار المحركة (كوني بردا وسلاما) [1] فتصبح وفق إرادة المشيئة الإلهية وتقول للسكين القاطعة لا تقطعي فتتوقف وتفدي الرهينة بذبح عظيم ." والحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن أن يحدث بفعل الأسباب أو النواميس ثم بفعل الإرادة الإلهية لأن الناموس لا يملك وحدة قدرة الانطباق والتوافق التي يسبب بها ألف حادث علي نسق واحد ولا بدله من القدرة التي يتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثا حادثا بلا فرق ما بين الجملة والتفصيل فلا فرق هنا بين الحادث الذي يقع مرة واحدة والحادث الذي يقع ملايين المرات فكلها تتوقف في بادئ الأمر علي إرادة الخلق والإنشاء "[2]، إذن فالكون كله بمظاهره وظواهره مربوب لإرادة الله تعالي ومسخر لمشيئته، والسنن وهي من قوانين الله لا يمكن أن تخرج عن مشيئته أو تند عن إرادته ، وقد عالج الأستاذ الإمام هذا الجانب من جوانب السنن الربانية خاصة إن كثيرا من الناس يظن أن هناك تنافراً وتعارضا بين السنن الربانية بما لها من خصائص الاطراد والشمول والحاكمية وعدم التبدل والتحول وبين إرادة الله تعالي ومشيئته فأكد رحمه الله علي تصحيح هذا الفهم بأنه لا تناقض بين السنن والمشيئة ، فالسنن مربوبة بمشيئة الله تعالي والمشيئة

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٦٩ .
(٢) انظر الفلسفة الإسلامية ط دار الهلال بدون تاريخ للأستاذ العقاد ص ١٧ بتصرف يسير .

تجري علي سنن الله في خلقه (فلا شك أن الله يفعل ما يشاء وأن كل شيء يقع بمشيئته تجري في العالم بمقتضي سننه وتقديره)[١] ويؤكد رحمه الله علي هذا التعانق بين المشيئة والسنن ويصحح أفهام كثيرين من المسلمين وغير المسلمين في هذه القضية في موضوع قوي الفكر واضح المعني سماه تصحيح القرآن لعقائد الأمم في المشيئة والسنن يذكر فيه " أن المسلمين من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال الله في خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد في حكومته المطلق في سيادته حاشاه تعالي – فهو(خلقه تشبه الحاكم في حكومته في – حاشاه تعالي)– يحابي بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم ويثيبهم علي العمل الذي لا يقبله من سواهم لمجرد دخولهم في عنوان معين وانتمائهم إلى نبي مرسل وينتقم من بعض الناس لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان ، ولم يتفق لهم الانتماء إلى ذلك الإنسان ، هذا ما كانوا يظنون في دينهم ويسندونه إلى مشيئة الله المطلقة من غير تفكير في حكمته البالغة وتطبيقها علي سننه العادلة .. فجاء القرآن الكريم يبين للناس أن مشيئة الله تعالي في خلقة إنما تنفذ علي سنن حكمية وطرائق قوية قويمة فمن سار علي سنن الله في الحرب – مثلا – ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحداً وثنياً ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً نبياً وعلي هذا يتخرج انهزام المسلمين في موقعة أحد حتي وصل المشركون إلى النبي فشجوا رأسه وكسروا سنّه "[٢] (إن مشيئة الله تعالي موافقة لحكمته وجارية علي مقتضي سننه)[٣] وقد ذكر الأستاذ الإمام – يرحمه الله – أن هناك عدداً من الحقائق التي حواها القرآن الكريم منها :

---

(١) المنار ج٩ ص ٣٤٣ ، ج ٤ص٩٩

(٢) انظر المنار ج٤ ص ١٦٦ بتصرف يسير

(٣) انظر السابق ج٥ ص ١٢٢

١- أن الله تعالي هو خالق كل شئ الذي بيده ملكوت كل شيء وبمشيئته يجري كل شيء فلا قاهر له علي شيء وهو القاهر فوق كل شيء

٢- أن خلقه وتدبيره إنما يجري بحسب مشيئته وحكمته علي سنن مطردة ومقادير معلومة (١)

وينعي الأستاذ الإمام علي المسلمين الغافلين عن هذا الإدارك اللاهين عن ذاك الترابط الذي يتعاضد ولا يتعارض ويتآلف ولا يتخالف وكل في فلك يسبحون فيقول (أيظن المسلم الغافل أن مشيئة الله تعالي مخالفة لسننه التي بينتها آيات إيتاء الله الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء .. أيظن المسلمون أن تنازع الأمم والدول علي ممالكهم وسلبها من أيديهم مخالف لعدل الله العام وسننه الحكيمة التي جاء بها القرآن الكريم كلا إنه تعالي ما فرط في الكتاب من شيء ، ولكن هم الذين فرطوا وذاقوا جزاء تفريطهم فإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم وإلا فقد مضت سنن الأولين (٢)

وخلاصة القول :

أن الأستاذ الإمام – رحمه الله – يؤكد علي تلك الحقيقة التي أخفق في فهمها كثير من الناس سواء من الأمم الماضية وأصحاب الملل الأخرى أم من المسلمين ، وهي أن العلاقة بين كليهما علاقة حميمة لا تنافر فيها ولا اختلاف ومن أين يأتي الخلاف والكل يخرج من مصدر واحد ويصدر عن مشكاة واحدة.

(١) المنار ج٤ ص ١٥٥
(٢) المنار ج ٢ ص ٣٩٣

المبحث السابع

السنن الربانية وحرية الإرادة

حرية الإرادة البشرية من الأمور الشائكة والقضايا التي عالجها الفكر الإسلامي في أطروحته قديما وحديثا وكانت تلك المعالجات بين مقتصد وظالم لنفسه جعل الإنسان كالريشة المعلقة في الهواء تميل مع الريح حيث تميل لا اختيار ولا إرادة

ومنها ما ذهب إلى أن إرادة الإنسان مستقلة استغلالا تاما دون قيود أوحدود ولا تقف أمامها عقبات أو سدود، والناظر لأول وهلة في العلاقة بين السنن والإرادة يسترعي نظره سؤال هام مفاده هل السنن بما لها من صفات وخصائص تكاد تكون جامدة صماء لا تتبدل ولا تتغير تؤثر في حرية الإرادة بالنسبة للإنسان ،وهل للإنسان دور في جريان هذه السنن وهل له من الحرية من شيء؟ عالج الأستاذ الإمام هذه العلاقة في تفسيره فنراه عند تفسير قوله تالي " ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [١]

يقول " يتوهم أهل الجبر أنها تدل علي نحلتهم ويرده أنه تعالي أمرهم بقتال المشركين ولو كانوا مجبرين لكان أمرهم لغوا وعبثا وقوله تعالي " يعذبهم الله بأيديكم " معناه يعذبهم بتمكين أيديكم من رقابهم قتلا ومن صدورهم ونحورهم طعنا ويؤكد الوعد بعده بنصرهم وفي معناه قوله ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ " [٢]وقوله﴿ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٣] وقوله ﴿ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [٤] وليس في معني هذه الايات أن الله تعالي منعهم من اهداية بقدرته فصاروا عاجزين عنها مجبرين علي الفسق والظلم والكفر إجبارا وإنما معناه

---

(١) التوبة ١٤ .
(٢) التوبة ٥٢ .
(٣) التوبة ١٩.
(٤) التوبة ٢٤ .

. أن هذه الصفات التي رسخت في أنفسهم بكسبهم منافية لهدي الله الذي بعث به رسله بحسب سننه تعالي في الأسباب والمسببات[١]

فإرادة الإنسان في الاختيار لا جبر ولا قهر ولا إرغام للإنسان علي مالا يريده لكن كل ذلك في ضوء سنن الله المبثوثة في عباده وقوانينه الماضية في خلقه وتعبير القرآن عن هؤلاء بالطبع علي قلوبهم أو عدم هدايتهم أو تثبيطهم إلى آخر هذه التعبيرات القرآنية عن هؤلاء لا يوهم ذلك أنهم مجبرون علي الفسق أو الضلال أو التثبيط عن الجهاد أو عدم العلم الخ لأن الناظر في هذه الآيات يتأكد له كما يقول الشيخ أن هؤلاء لهم كسب لإحلال هذه الصفات بهم كقوله تعالي " الفاسقين " "الكافرين " "الظالمين " واستخدام المشتق هنا يدل علي أن الحكم مهلل بما منه الاشتقاق فالفاسقون والكافرون والظالمون أسماء فاعلين من الفسق والكفر والظلم وكذلك الطبع علي قلوبهم كان لمثل هذه الأسباب ونجد هذه الدلالة أكثر صراحة في مثل قوله تعاي " نسوا الله فنسيهم "[٢] وقوله: " ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون "[٣] ويوضح الأستاذ الإمام هذه السادس " الناس عاملون بالإرادة الاختيار ولكنهم خاضعون في أعمالهم للسنن والأقدار فلا إجبار ولا اضطرار ولا تعارض بين عملهم بالاختيار وبين مشيئة الله تعالي ولا يعدون مشاركين له في إراته وقدرته وقدرته فإن صفاته تعالي ذاتية واجبة الوجود كاملة وإرادة العباد وقدرتهم من عطاء الله تعالي وخلقه حسب مشيئته فهو الذي شاء أن يخلق نوعا من الخلق ويجعله ذا قدرة محدودة ومشيئة تتوقف عليها الأعمال الاختيارية ومعني خلقه تعالي الأشياء بقدر وتقديره لكل شيء انه خلقها بنظام جعل فيها المسببات علي قدر الأسباب عن علم وحكمة ولم يخلق شيئا جزافا ولا انفا، كما يزعم منكروا القدر ،فليس في القدر شيء من معني الإكراه والإجبار علي العمل البتة " وورود ألفاظ الختم والطبع والأكنة والريب علي القلوب لا رتلاطها

---

(١) العنار ١١ ،٨١، ٨٢

(٢) التوبة / ٦٧.

(٣) التوبة /١٣٧.

بالاستعداد للإيمان في القرآن الكريم ليس نفيا لحرية الإرادة وغنما لكسب هؤلاء الصفات التي يؤدي بهم إلى هذه النتائج وهذا هو عين معني السنن وفي ذلك يقول الأستاذ الأمام: " ويدخل في هذا النتائج وهذا هو عين معني السنن وفي ذلك يقول الأستاذ يقول الأستاذ الإمام " ويدخل في هذا الباب سنة الله تعالي وقدره في فقد الاستعداد للإيمان الذي يعبر عنه في القرآن بمشيئة الإضلال وبالأكنة والختم علي القلوب ويوصف أصحابه بالصم البكم العمي ليس معني هذه السنة إن الله بقدرته طبع علي هؤلاء بالكفر ابتداء وخلقا حتي صار تكليفهم بالإيمان عبثا ومن تكليف ما لا يطاق بل هي داخلة في نظام المقدار وارتباط السباب بالمسببات إذا هي عبارة عن تأثير أعمال الإنسان في نفسه وتأثير التربية والمعاشرة أيضا فهي إذا أثر كسبه " فلا يظلم الله تعالي عبده مالا يطيق أو يكلفه مالا يتحمل أو يحكم عليه بأشياء لا يستطيع منها فكاكا ولها خلاصا بل كل يجري حسب سنة وللإنسان حرية الاختيار، فإذا حقق أسباب الفعل تحققت له أسبابه ونستطيع أن نقول إن رأي الشيخ في المسألة تتخلص في أن للإنسان إرادة حرة واختيارا فاعلا وأن سنن الله تعالي ماضية وهناك علاقة بين سنن الله تعالي وإرادة الإنسان وإلا صح تكليفه بالأمر والنهي والفعل والترك والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

المبحث الثامن

العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية

الناظر في جوانب الإعجاز الكوني بما يحويه من دلالة قاهرة وإرادة باهرة وعين لا تأخذها سنة ولا نوم يجد تناسقا بديعا ،وتشابكا محكما بين هذه الجوانب الكونية الإعجازية الرائعة وجوانب السنن التي تحكم سلوك البشر فالآفاق الواسعة الفسيحة بما تحمل من قوانين ثابتة مطردة وسنن ماضية حاكمة جانب من جوانب الإعجاز الإلهي ، الجوانب التي من خلالها يصل الناس إلى الله تعالي. (والأنفس) بما لها من قوانين ضابطة تمضي عليها لا تشذ عن ضبطها ولا تنفلت عن سياجها جناح آخر لهذا اللون من ألوان الإعجاز .

وأقصد بالسنن الكونية الظواهر الكونية التي أسس عليها الكون من سماوات وأراضين وذرات ومجرات وبحار ، وبتعبير القرآن المعجز (آفاق) .

وأقصد بالسنن الإلهية (موضوع البحث) النظام الإلهي في الأفراد والأمم والشعوب والمجتمعات والناظر في هذين المجالين يجد ارتباطا عجيبا وتناسقا بديعا من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة .

فقوانين الافاق التي تحكم الكون بظواهره تخضع لثبات واطراد وشمول وحاكمية مهيمنة ؛فالماء يصل إلى الغليان عند درجة مائة ، ويتجمد عند درجة الصفر ، وهذا القانون ثابت لا يتغير ولا يتبدل ؛بل يعطي نتيجته لكل من يتعامل معه دون نظر إلى طبيعة من يتعامل معه ؛ ذلك لأنه قانون ماض علي الجميع لا يحابي ولا يجامل ولا يستثني ، وكما يمضي هذا النظام الإلهي في جوانب الكون الإعجازية بثبات واطراد وعموم وعدم تبدل أو تحول يمضي أيضا في جوانب الحكم علي أفعال البشر في الحياة ، فإن مصدر هذه القوانين الكونية وتلك القوانين الإلهية في الأمم والأفراد واحد وهو الله سبحانه وتعالي ، وهناك ارتباط وتآخ بين المجالين ، المجال الكوني

بما فيه من جوانب الإعجاز والنظام والجانب البشري بما فيه من سلوك البشر وأفعالهم [١] .

ولقد عني الأستاذ الإمام برصد هذا التطابق بين قوانين الله تعالي في الأنفس وقوانينه في الآفاق والذي لخصته الآية الكريمة " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد " [٢] فيذكر رحمه الله هذا التزاوج بين سنن الله في كونه وسننه في خلقه بقوله " إن لله تعالي في نظام التكوين والإبداع وفيما هدي إليه من نظام الاجتماع سننا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس وأنها عامة في عالم الأجسام وعالم الأرواح ونؤمن بأن له تعالي في خلقه آيات بينات علينا أن نثبت وقوع شيء من الخلق علي خلاف نظام التقدير وسنة التدبير إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه وأنه لا بد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة لا عن خلل ولا عبث وأن ما خفي علينا من حكمه كسائر ما يخفي علينا من أمور خلقه نبحث عنها لنزداد علما بكماله ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ولا نتخذها حجة ولا عذرا علي الكفر به لجهلنا ،وقد ثبت لأعلم العلماء منا أن ما نجهله من هذا الكون أكثر مما نعلمه ويستحيل أن يحيط البشر به علما " [٣] بهذه الصورة يوضح الأستاذ الأمام التطابق بين سنن الله تعالي في الكون وسننه في الإنسان ويري الشيخ رحمه الله أن العلم بسنن الله تعالي في الكون مثل العلم بسنن الله تعالي في الإنسان طريق إلى معرفته عز وجل " فالعلم بذلك كله من معرفة آيات الله وكمال صفاته ما يعطي متأمله اليقين في الإيمان إذا قصده ويغدق عليه من نعمه التي من عليه بها ويمده لشكرها فيتجمع له بذلك سعادة الدارين وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا علي أكثر خيرات

---

(١) مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير ص ط دار التوزيع والنشر الإسلامية ط أولي ١٤٢٦ /٢٠٠٥ رمضان خميس
(٢) فصلت ٥٣ .
(٣) تفسير المنار ١٠ /١٩٨ .

الأرض في بلادهم وبلاد الجاهلين بها الذين أضاع الجهل دنياهم ودينهم بالتبع لها"[1] من هنا نري أن إدراك السنن الكونية طريق إلى معرفة الله عز وجل وعمق اليقين في الإيمان به وأن إدراك الإنسان لها يجمع له سعادة الدنيا وعزها وفوز الآخرة وهناءها.

(١) تفسير المنار ٤٧٨/٩ .

المبحث التاسع

العلاقة بين الأسباب والسنن

الأسباب جمع سبب والسبب ما يتوصل به إلى غيره وهناك علاقة واضحة بين الأسباب والسنن فالسبب طريق السنن يتوصل به إليها ولا طريق إلى السنن إلا به وقد جعل الله – تعالي – لكل سنه سبيلها الذي يتوصل به إليها وطريقها الذي يستدل به عليها .

فهم المسلمون الأوائل ذلك فكثر في كلامهم إشارات إلى العلاقة الكبري بين السنن والأسباب والعروة الوثقي بين كل سبب وثمرته فشاع في كلامهم مثل " علامة الإذن التيسير " و" إذا أراد الله أمر هيأ له الأسباب " .

وقد عني الأستاذ الإمام – رحمه الله – في تفسيره وتفكيره بإظهار هذه العلاقة بين السنن والأسباب حتي يعي الإنسان عامة والمسلم خاصة أن لكل شيء سببا فيتبع سببا فيقول مثلا وهو يوضح أثر هذا الترابط بين السنن والأسباب في سعادة الإنسان أو شقائه وبقائه أو فنائه " لقد نادي الكتاب الكريم بأن نظام البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلي من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام وأن يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء وإن ارتفع في الصالحين نسبة أو اتصل بالمقربين سببه " [١]

وعند يتناول الحديث عن الاستعانة والعبادة في تفسير سورة الفاتحة يرشد إلى هذه العلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة فيقول " إن الاستعانة ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالي بالعبادة فإن من معني العبادة الشعور بأن السلطة الغيبية التي هذه وراء الأسباب العامة الموهبة من الله تعالي لعبادة كافة هي لله وحدة .. فمن أنواع المعرفة داخلا في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من كان غير داخل فيها يتوجه

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٤ ـ ٥٥

في طلبه إلى الله تعالي بلا واسطة ولا حجاب وبهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالي فيها

بل الكمال الأدب في الجمع بينهما "[١] ويؤكد الأستاذ الإمام – رحمه الله – علي أن السنن موقوفة علي الأسباب والأسباب ممكنة للإنسان لأنها سلسلة متصلة الحلقات منتظمة الخطوات فإذا أخذ الإنسان بالأسباب وصلت به إلى السنن وإن أغفلها مضت عليه الأسباب بنقيض مراده في غير خوف ولا وجل " فكل عمل للإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه علي حصول السباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضي الحكمة أن تحول دونه وقد مكن الله تعالي الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة مع دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب وحجب عنه البعض الآخر فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ونبذل في إتقان أعمالنا ما نستطيع من حول وقوة وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا علي ذلك ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر علي كل شيء ونلجأ إليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه وتعالي دون سواه إذ لا يقدر علي ما وراء الأسباب المنوحة لكل البشر علي السواء إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب[٢]

<u>الأسباب والسنن من عند الله</u>

استمرارا لهذا التوافق بين السنن والأسباب وأنه لا تناقض بين هذه وتلك وإيضاحا لهذه الصورة يركد الأستاذ الإمام علي إن مصدر السنن والأسباب واحد وهو الله عز وجل فلا تنافر ولا تناقض فيقول رحمه اله وهو يتناول قوله تعالي "﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [٣]كان المنافقون والكفار من اليهود وغيرهم إذا أصاب الناس في المدينة سيئة بعد الهجرة يقولون هذا من شؤم

---

(١) المنار ١-٥١.
(٢) السابق ٤٩/١.
(٣) النساء ٧٩ .

محمد فقال الله تعالي قل لهم يا محمد إن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله لوقوعها في ملكه علي حسب سننه في نظام الأسباب والمسببات " فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا " وإذا أصاب عقولهم حال كونها بمعزل عن الغوص في أعماق الحديث وفهم مقاصده وأسراره فهم لا يعقلون حقيقة حديث يلقونه ولا حقيقة حديث يلقي إليهم قط وإذا كانوا قد فقدوا هذا الفقه وحرموه من كل حديث فأجدر بهم أن يحرموا من حديث يبلغه الرسول ﷺ عن وحي ربه في حقيقة التوحيد ونظام الاجتماع وسنن الله في الأسباب والمسببات فهذه المعارف العالية لا تنال إلا بفضل الروية وذكاء العقل وطول التدبر ومن نالها لا يقول بأن سيئة تقع بشؤم أحد وإنما يسن كل شيء إلى السبب أو إلى واضع الأسباب ، والسنن ولكل مقام مقال " [1]فهناك أسباب تؤدي إلى المسببات ومقدمات تلد النتائج ولكن هذه الأسباب وحدها وتلك المقدمات بمفردها لا تنتج إلا بإرادة الملك القاهر الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ، إن السباب التي تعارق عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها ، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الآثار والنتائج وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ السباب والمقدمات سواء﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾[2] ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [3]والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها .. إن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء فهناك دائما وراء السنن الإرادة المدبرة والمشيئة المطلقة ..

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [4]

---

(١) تفسير المنار ٥/٢١٧

(٢) الطلاق آية ١ .

(٣) الإنسان من الآية ٣٠ .

(٤) القصص من الآية ٦٨ . وانظر ج / ١ صـ ١٣ من المقدمة ط دار الشروق التاسعة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ مـ

الإنسان بين الأسباب والسنن

أن حركة الإنسان بين الأسباب والسنن حركة محسوبة وموزونة لها منافعها العظيمة إن أحسن وأجاد ولها عواقبها الوخيمة إن أساء التصرف وتنكب الصراط المستقيم يوضح الأستاذ الإمام هذا المعني فيقول : إن كل شئ من عند الله بمعني أنه خالق الأشياء التي هي موارد المنافع والمضار وأنه واضع النظام والسنن لأسباب الوصول إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان وكل شيء حسن بهذا اعتبار لأنه مظهر الإبداع والنظام، والإنسان لا يقع في شيء يسوؤ ه إلا بتقصير منه في استبانة الأسباب وتعرف السنن فالسوء معنى يعرض للأشياء بتصرف الإنسان وباعتبار أنها تسوؤه وليس ذاتيا لها ولذلك يسند إلى الإنسان إن الإنسان فضل علي غيره من الكائنات بما أوتي من الاستعداد للعلم ومن الإرادة والاختيار في العمل وأحسن الاختيار مهتديا بسنن الفطرة وأحكام الشريعة وهي كلها من عند الله ومحض فضله ورحمته – كان مغمورا الحسنات والخيرات واذا قصر في العلم وأساء الاختيار في استعمال التي تسوؤه فيجب عليه أن يرجع إلى نفسه بالمحاسبة والمعاينة كلما أصابته سيئة ليعتبر بها ويزداد علما وكمالا[١] إذا فللإنسان دور في استكشاف الأسباب والوصول من خلالها إلى السنن فإن أحسن البذل والجهد نال ما تمني بقدر ما تعني وإن كانت الآخري فخير تفلت من بين يديه بنكوصه علي عقبيه ويؤكد الشيخ علي هذه الفكرة بأن" للإنسان عملا في السباب فإن أحسن وأصاب كانت له الحسنة والفضل لله في ذلك وإن أخطأ وأساء كانت له السيئة بخروجه عن تلك السنن وتقصيره في تلك الأسباب " [٢]

وخلاصة الأمر

أن الأسباب مقدمة السنن والسنن ثمرة الأسباب فمن أخذ بسبب سنة من السنن مضت إليه وانتفع من خيرها وعطائها ومن أغفل السبب انحرفت السنن من يديه ولم يأته

---

(١) المنار ٥/٢٢٠ .
(٢) السابق ٥/٢٢٠ .

منها قليل ولا كثير وأن السنن والأسباب متوافقة غير متنافرة لأنها تصدر عن مشكاة واحدة وتخرج من مصدر واحد وهو إرادة الله تعالي وللإنسان دور في هذه الأسباب والسنن تأتيه حسب دورة هذا بين الأسباب والسنن تأتيه حسب دورة هذا بين الأسباب والسنن وحسب ما يسره الله تعالي له من إدراك السنن وتوظيف الأسباب لتكون له لا عليه وأن تخدمه لا أن تستخدمه .

المبحث العاشر
موارد السنن الربانية
في فكر الإمام محمد عبده

للسن الربانية التي عني القرآن الكريم بالحديث عنها ، وأكثر من لفت أنظار الناس إليها – موارد إذا طلبها الإنسان وصل إليها دون لبس أو التواء وقد حفل القرآن الكريم بهذه المواطن التي يكثر فيها ظهور السنن والتي نعبر عنها بموارد السنن الربانية في القرآن الكريم .

ومن هذا المظان وتلك الموارد :

١- القصص القرآني

الذي ما تختم قصة من قصصه إلا باعطاء سنة من سنن الله تعالي في خلقه وقانون من قوانينه عز وجل في عبادة واذكر إن شئت قوله تعالي يصور جانبا من جوانب قصة نبي الله يوسف – عليه السلام ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) أليس هذا اختر الأ للعاقبة المرتبة علي الثبر والتقوي والتي يعبر عنها بسنة الله في الصابرين والمتقين وعندما نقرأ قول الله تعالي في نهاية السورة الكريمة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)

وفي قصة قارون وما دار فيها بينه وبين قومه تجد قول الله تعالي "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين " (٣)

<u>المثل القرآني :</u>

– ومن المواطن التي يكثر فيها وجود السنن في القرآن الكريم المثل " وقد حرص القرآن الكريم علي تصوير معاينه وعرض قضاياه بأقرب صورة وأوضح سبيل

---

(١) سورة يوسف من الآية ٩٠
(٢) سورة يوسف آية ١١١
(٣) سورة القصص آية ٨٣

فجاءت أمثاله متكاثرة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة وتضمنت هذه المثال بتركيبتها المعروفة عددا من السنن الثابتة والقوانين الماضية حتى لا يكاد يخلو مثل من أمثال الكريم من الإشارة إلى سنة أو التعقيب علي قانون، ولم ؟! وأصل وظيفة المثل في مضربه تصوير حالة حاضرة بحالة ماضية وإعطاء اللاحقة حكم السابقة لتشابه أطرافها واتحاد أحوالها وكثر في القرآن ضرب المثال وربطها بالقصة واعتبار، فقد ورد المثل في القرآن الكريم ما يزيد علي مائة مرة وهذا بلفظ ومشتقاته عدا الصور الأخري التي ورد عليها المثل في القرآن الكريم [١]

٣- الآيات التي ورد فيها المر بالسير في الأرض

ومن المواطن التي يكثر فيها ورود السنن الربانية الآيات التي تأمر بالسير في الإرض للنظر والاعتبار وقد كثرت هذه الآيات فورد المر بالسير في الأرض أربع عشرة مرة بصور متعددة منها التحضيض ومنها الأمر ومنها لفت أنظار الناس إلى قيمة هذا السير ففيه الوقوف علي أحوال الما ضين ومصارع الغابرين وغالباً تأتي السنن بعد هذا الأمر .

وعندما نقلب فكر الأستاذ الإمام لغري موقفه من هذه الموارد الثابتة للسنن الربانية نجد أنه ضمن عنايته الفائقة بالسنن وأهميتها وقف عند عددمن النقاط والموارد ومنها :-

١- الأمر بالسير في الأرض والاعتبار بمن كانوا

وهذا باب من أعظم أبواب إدارك السنن لنه لا يقف عند علم اليقين بل يصل إلى علم اليقين وقديما قالوا:

يا ابن الكرام ألا تدنوا فتبصر ما قد حدثوك فما راء كمن سمعا

وليس بعد العيان بيان وليس الخبر كالمشاهدة

(١) انظر مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير د.رمضان خميس الغريب بحولية الدراسات الإسلامية والعربية – القاهرة جامعة الزهر العدد الثالث والعشرون ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ ص ٤١٠

من هنا يتبع الأستاذ الإمام الآيات التي فيها امر بالسير ويقف عندها طويلا علها تلفت أنظار المسلمين فتتغير أحوالهم ويفيدوا من مضامين القرآن الكريم كما أفاد سلفهم السابقون فيقول – رحمة الله – والسير في الأرض والبحث عن أحوال الضاين وتعرف ما حل بهم هو التاريخ الذي يوصل إلى معرفة السنن والاعتبار بها كما ينبغي ، ثم إن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفة الذين ساروا في الأرض وراوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلم ويري الآثار بعينه لذلك أمر بالسير والنظر [1]"

وهذا النص من كلام الأستاذ الإمام – رحمه الله – دال علي أن السير في الأرض أعظم طريق من طرق الوصول إلى سنن الله تعالي في النفس ولا بعدله طريق آخر لأنه طريق معاينة تقيم الحجة علي صاحبة وتبصره بعيني رأسه بأمم مضت وقرون خلت أخذت بمقدمات هدتها إلى نتاج وكل من سار سيرتها الأولي وصل إلى ما وصلت إليه . ويؤكد – رحمة الله – علي هذا المعني عندما يتناول قول الله تعالي﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[2] فيقول " فسيروا في الأرض واستقروا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلي بذلك وهو الذي يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل به" [3]

ويؤكد – رحمه الله – تعليق المر بالسير علي عدم التصديق ، وهو المعني الذي ذهب إليه بعض المفسرين[4] ، فيقول : وقال بعض المفسرين أي إن لم تصدقوا فسيروا... وهو قول باطل [5] ، فهو يري أن الأمر بالسير والنظر ليس لغير المصدقين الشاكين بل هو أمر عام وظاهر الآيات كما هو واضح أنهامواجهة ال الله تعالي يقول

---

(١) المنار ج ٤ص ١١٧ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٧ .
(٣) المنار ج ٤ ص ١١٧ .
(٤) ومن هؤلاء المفسرين الأمام الطبري في جامع البيان ويري الجلال أن المراد بهم المؤمنون وانظر تفسير هذه الآية عند كليهما .
(٥) المنار ج ٤ ص ١١٧ .

لهم : إن ما حصل لكم من الانكسار بعد الانتصار والهزيمة بعد النصر ليس بدعا ولا غريباً بل هو سنة من سنن الله تعالي في عباده ، وسيروا في الأرض للتأكد لديكم هذه المعرفة وتصل إلى درجة عين اليقين .

ويرفض – رحمة الله تعالي – السير لمجرد السير ويري أن القرآن عندما أمر بالسير والنظر أراد منه النظر الفاعل المنتج الذي يؤدي إلى مزيد من كمال وارتقاء وأننا لو وقفنا عند ظاهر الكون وانتهينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكما كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه الله من علم وحكمة [١]

علم التاريخ وأحوال البشر

ومن المواطن التي يذكرها الأستاذ الإمام – رحمه الله – لمعرفة السن علم أحوال البشر– فلا بد للناظر في الكتاب من النظر في أحوال البشر وأطوارهم وأدوارهم ومنا شئ اختلافهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج هذا إلى علوم كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه [٢] وينتقل الأستاذ رشد رضا – رحمه الله تعالي (كان الناس أمة واحدة فبعض الله النبيين مبشرين ومنذرين) [٣] وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معني تلك النبيين فيهم [٤] فعلم أحوال لبشر أو التاريخ من المواطن التي يتعرف منها علي سنن الله تعالي في الإنسان فإنه يحدث للسابق ويجري علي الثاني ما جري علي الأول إذا مضي علي سننه وسار علي طريقته .

٢– القصص القرآني

من موارد السنن التي تحدث عنها الأستاذ الإمام – رحمة الله – كذلك القصص ففيه رصد لسنن وقوانين قد تتكرر مع اللاحقين كما وقعت مع السابقين يقول

---

(١) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢١ بتصرف كبير .
(٢) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ بتصرف وترتيب .
(٣) سورة البقرة آية ٢١٣ .
(٤) انظر تفسير المنار ج ١ص٢١ بتصرف يسير .

الأستاذ الإمام — رحمه الله – : انزل الله تعالي هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبين في غيره بين فيه كثيراً من الأحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمام السابقة وسيرها والموافق لسننه فيها .... وأجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السماوات والأرض وفي الآفاق وفي النفس وهو إجمال صادر عن من أحاط بكل شيء علما [١]

٣- النظر ف بالكائنات وأحوالها والتعمق في دراستها

كما يري الأستاذ الإمام – رحمه الله – إن من وسائل الوصول إلى معرفة السنن البحث في علوم الكائنات وجعل ذلك أصلا من الأصول التي دارت عليها سورة الأنعام وهو الترغيب في علوم الكائنات والإرشاد إلى البحث فيها لمعرفة سنن الله وحكمته وآياته الكثيرة فيها الدالة علي علمه وحكمته ومشيئته وقدرته وفضله ورحمته ولأجل الاستفادة منها علي اكمل الوجوه التي ترتقي بها الأمة في معاشها وسيادتها [٢]

ويهيب الأستاذ الإمام – رحمه الله – بالأمة خاصة والإنسان عامة بأن يعمق نظره في هذه الكائنات التي أبدعها الله تعالي " فيري أن سنن الله تعالي في ابداع خلقه لا يحيط بها إلا الله تعالي ومع ذلك فكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكيراً واختياراً وتدبراً وتجربة ونفعاً ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون أو يتوهمون "[٣]

(١) تفسير المنار ج ١ص ٢٠ ، ص٢١ بتصرف واختيار .
(٢) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢٥٦ ، ص ٢٥٧ .
(٣) انظر تفسير المنار ج ١١ ص ١٩٥ .

والخلاصة :

أن الأستاذ الإمام عني بالحديث عن موارد السنن الربانية وطرق الوصول إليها وقد رصد عدداً من هذه الموارد والطرق منه القصص القرآني ودراسته والاتعاظ بما فيه ، والسير في الأرض وتعرف أحوال الأمم الماضية والاعتبار بحالها ومالها ، والنظر في التاريخ وأحوال البشر ، والنظر في علوم الكائنات هذا الكتاب المنظور الذي يتطابق مع الكون المسطور سواء بسواء .

المبحث الحادي عشر

الإنسان بين إدراكه للسنن وتوظيفه لها

الإنسان هو خليفة الله في أرضه استعمره فيها واستخلفه من قبله عليها ومهد له سبل الانتفاع بهـ ووسائل التعايش معها وجعل كل ما حوله يخدمه ويؤازره وزوده بملكات يدرك من خلالها ما حوله وهداه إلى سبل الانتفاع بها وجعل ذلك نعمه من نعمة عليه ومنه من مننه لديه تستحق التسبيح والذكر بل العبادة والشكر فقال تعالي ﴿سبح اسم ربك الأعلي الذي خلق فسوي والذي قدر فهدي والذي أخرج المرعي فجعله غثاء أحوي ﴾[1]

لقد هيأ الله عز وجل الإنسان بطريقة تجعله أقدر علي التعايش مع معطيات الحياة التي يحياها والدنيا التي يجوبها والأرض التي استعمره فيها فهيأ له السمع والبصر والفؤاد وجعل إدراكه وأرشده إلى هذه النعمة ؛ نعمة الإدراك التي من خلالها يستطيع توظيف الحياة بما فيها ومن فيها لصالحه ليوظف نفسه لعبادة الله وحده لا يشرك به شيئا (والله اخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)[2] ولفت نظر الإنسان – هذا المخلوق الضعيف إلى هذه الظواهر الكونية التي سخرها الله تعالي له من ماء ينزل من السماء ونبات تنشق عنه الأرض وليل ونهار وشمس وقمر وبحر يستخرج منه حلية يلبسها ، وحددت سورة النحل في شريحة رائعة من شرائحها علة هذا التسخير كله مترقية بالإنسان إلى قضية عقلية وعقدية راسخة هي أن من يخلق ليس كمن لا يخلق فيقول تعالي﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ

---

(١) الأعلى ١-٥

(٢) النحل ٧٨

الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] فهل تري أيها الإنسان الكريم أن تسخير هذه النعم والمد بهذه الآلاء يكون عبثا بلا هدف أو سدي بلا قصد وغاية إن كل هذه الظواهر الكونية المسخرة للإنسان إنما هي نوع من التهيئ والإعداد ليستطيع من خلالها أن يدرك الليل والنهار والأمس واليوم والغد وليدرك ما حدث في أمسه ليفيد منه في يومه ويوظفه في غده وهل إدراك السنن غير هذه المعني من معاني الإدراك ؟

لقد عني الأستاذ الإمام بهذه القضية قضية إدراك الإنسان بصفة عامة والمسلم بصفة خاصة لسنن الله تعالي في خلقة فيقول عندما تناول قوله تعالي (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) [2] " إن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالي في الأمم وأحق الناس بالسير علي طريقها بين الأمم ذلك أن كل إنسان له عقل يعتبر به يفهم أن السير في الأرض يدل علي تلك السنن ولكن المؤمن المتقي أجرر بفهمها لأن كتابه أرشده إليها وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها فإن لسير الناس في الحياة سننا يؤدي بعضها إلى الخير والسعادة وبعضها إلى الهلاك والشقاء وأن من يتبع تلك السنن فلا بد وأن ينتهي إلى غايتها سواء كان مؤمنا أو كافرا" [3] ويؤكد – رحمه الله – علي أن كل إنسان مهيأ لإدراك السنن سواء كان مؤمنا أو كافر بقوله وما ذكر من إن الله تعالي سننا في الأمم هو بيان لجميع الناس لاستعداد كل عاقل لفهمه واضطرار إلى قبول الحجة المؤلفة منه إلا أن يترك النظر أو يكابر أو يعاند [4] لكنه يركز علي إن أحق الناس بالانتفاع والاهتداء

---

(١) النحل ١٠-١٨
(٢) ال عمران ١٣٧
(٣) انظر تفسير المنار ج ٤ ص ١١٦ و١١٧ بتصرف واختيار .
(٤) السابق ج ٤ ص ١١٨ .

بهذه السنن هم المسلمون بقوله" " أما كونه هدي وموعظة للمتقين خاصة فهو أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة ويتعظون بما ينطبق عليهم من الوقائع فيستقيمون علي الطريقة وهم الذين تكمل لهم الفائدة والموعظة لأنهم يتجنبون ويتقون نتائج الأعمال التي يظهر لهم أن عاقبتها ضارة وينعي – رحمه الله – علي المسلمين التعامل معها في الوقت الذي سبقهم إلى هذا التعامل الغرب الكافر البعيد عن وحي السماء فيقول " فليزن مسلمو هذا الزمان إيمانهم بهذه الآيات [1] الأمر لهم بالسير في الأرض والتفكر في أحوال أهلها ، ولينظروا أين مكانهم من هدايته وما هو حظهم من موعظتها ، أما إنهم لو فعلو فبدأوا بالسير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم البائدة وأسباب هلاكها ثم اعتبروا بحال الأمم القائمة وبحثوا عن أسباب عزها وثباتها لعلموا أنهم أمسوا من أجهل الناس بسنن الله تعالي وأبعدهم عن معرفة أحوال الله ولرأوا أن غيرهم أكثر منهم سيرا في الأرض وأشد منهم استنباطا لسنن الاجتماع وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين والاتعاظ بجهل المعاصرين فهل يليق بمن هذا كتابهم أن يكون من يسمونه بعداوته أقرب إلى هدايته هذه منهم ؟ كلا إن المؤمن بهذا الكتاب هو من يهتدي به ويتعظ بمواعظه ، ولذلك جعل الهداية والموعظة من شؤون المتقين الثابتة لهم والمتقون هم المؤمنون القائمون بحقوق الإيمان " [2] بهذه الصورة الواضحة والمعاني الظاهرة يؤكد الأستاذ الإمام علي أن الإنسان مطلق إنسان مهيأ بفطرته لإدراك سنن الله تعالي في كونه وقادر علي توظيفها والتعامل معها وأن المسلمين بصفة خاصة ينبغي أن يكونوا أكثر الناس اهتداء بهذه السنن وانتفاعا بتلك الضوابط الصارمة والقوانين الماضية وذلك بدعوة كتابهم الخالد إلى النظر في سنن الله والتعامل معها

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

(١) وهي قوله تعالي قد خلت من قبلكم سنن الآيات .
(٢) المنار ج ٤ ص ١١٦ -١١٩ بتصرف واختيار .

الخاتمة نسأل الله حسنها

وبعد فهذه رحلة شائقة مع قضية لو وعاها المسلمون لتغيرت حالهم وإمام مصلح يحتاج إلى إعادة النظر في فكره الذي ظلم في حياته وبعد مماته بان من خلالها

- أن الأستاذ الإمام محمد عبده كان من أكثر الناس حديثا عن السنن الرابنية وفقهها وضرورة تدوينها وإحسان التعامل معها .
- اهمية دراسة السنن الربانية ومدي قصور إفادة المسلمين منها
- أن هذه السنن نالت حظاً وافراً من عناية النبي ﷺ سواء من الناحية النظرية والبيانية أو من الناحية العلمية التطبيقية وسيرته ﷺ خير شاهد علي ذلك .
- أن الصحابة الكرام عنوا بهذه السنن وطبقوها في حياتهم واستفادوا منها والذي يتابع حربهم وسلمهم وخطبهم ومحاوراتهم يدرك ذلك .
- أن لهذه السنن خصائص وسمات منها الأطراد والشمول والعموم وعدم التبدل أو التحول
- أن العلاقة بين المشيئة والسنن علاقة حميمة تتآلف ولا تتخالف وتتعاضد ولا تتعارض
- أن موارد السنن تكمن في المثل القرآني والقصة القرآنية والآيات الأمر بالسير في جنبات الأرض وأن إدراكها يحتاج إلى تفكر وتتبع
- أن الإنسان مهيأ لإدراك السنن بما منحه الله تعالي من خصائص، وهيأ له من نعم ولا يغفل عن إدراكها إلا غائب عن الإدراك .
- إن هذه السنن تحتاج إلى عقول وأقلام واعية لتظهرها وتدونها حتي تخدم الأمة في ظروفها الراهنة وتهيئ لها المستقبل المنشود .

والله من وراء القصد

والحمد الله رب العالمين

د/ رمضان خميس الغريب

أهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا :

- إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي ط/ عيس البابي الحلبي
- الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية للأستاذ الأمـام ط مكتبـة صـبيح بـدون تاريخ .
- الإمام محمد عبده د محمد البهي ط المجلس العلي للشؤون الإسـلامية ٢٠٠٥ العدد ١١٦ .
- تفسر الجلالين
- تفسير المنار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٧٣
- تفسير جزء عم للأستاذ الإمام ط الثالث ١٣٤١ هـ
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لإمام المفسرين الإمام الطبري
- الجامع لحكام القرآن للإمام القرطبي
- سنن الترمذي
- صحيح البخاري
- الفلسفة القرآنية ط / دار الهلال للأستاذ العقاد .
- مجلة الأزهر ج ٨ السنة ٧٨ عدد شعبان ١٤٢٦ هـ
- محاور المشروع الفكري لدي الشيخ محمد الغزالي ط دار الحرم لـتراث ٢٠٠٣ ط أولي د رمضان خميس الغريب .
- مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير بحـث منشـور بحوليـة كليـة الدراسات الإسـلامية والعربيـة ج / الأزهـر / القـاهرة العـدد ٢٣ د/ رمضـان خميس الغريب .

فهرس الموضوعات